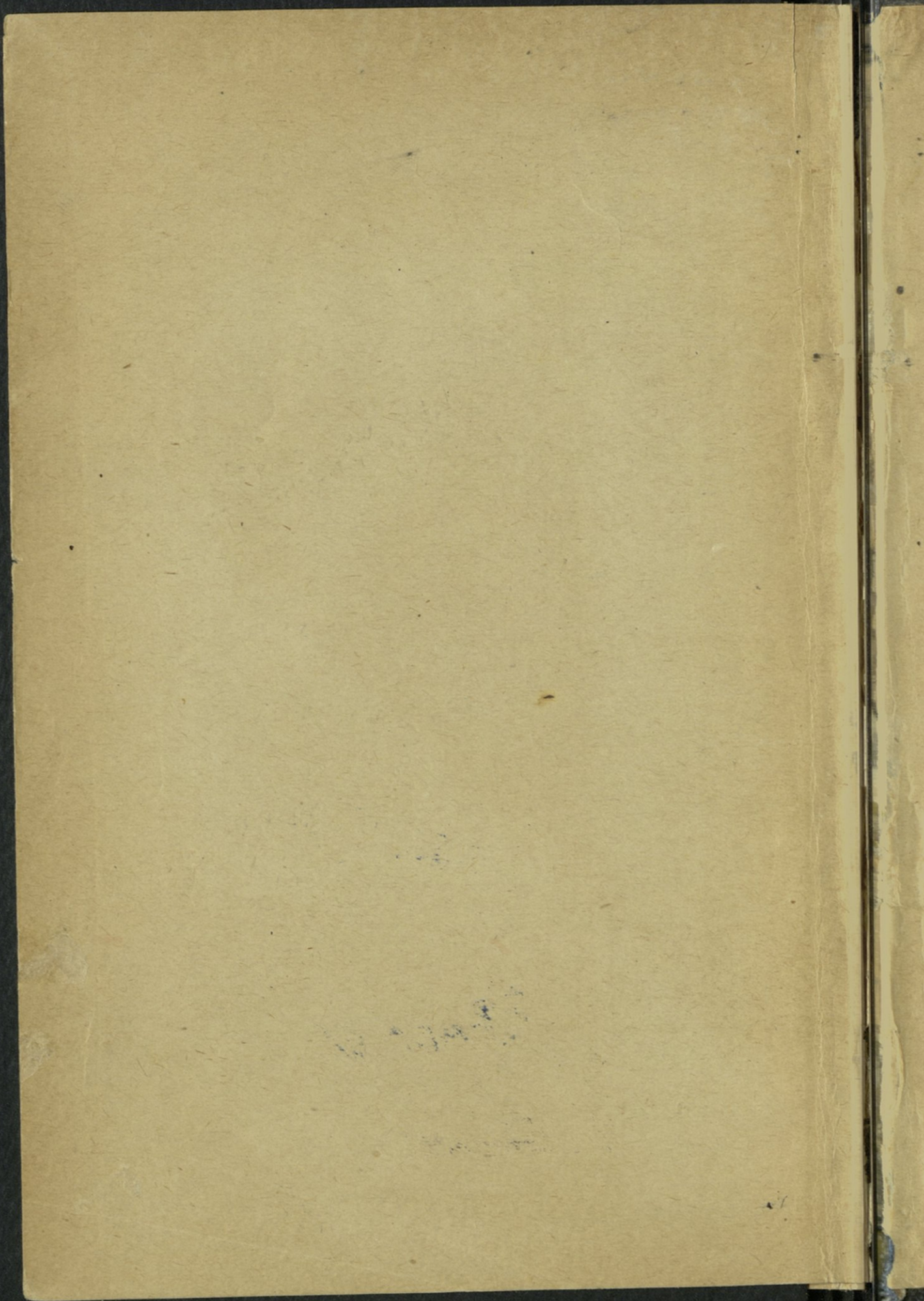


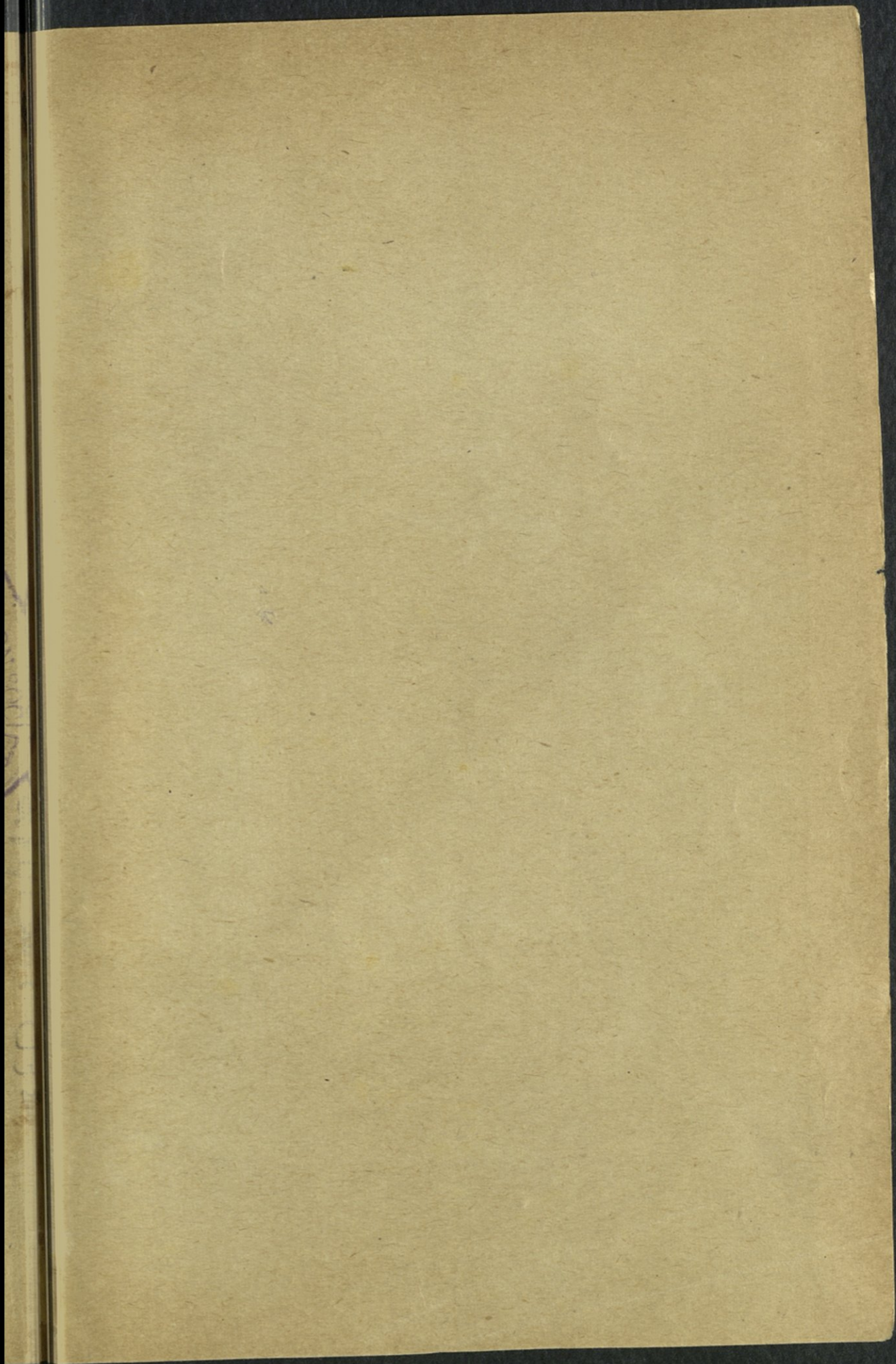
~~15 MAR~~ 67

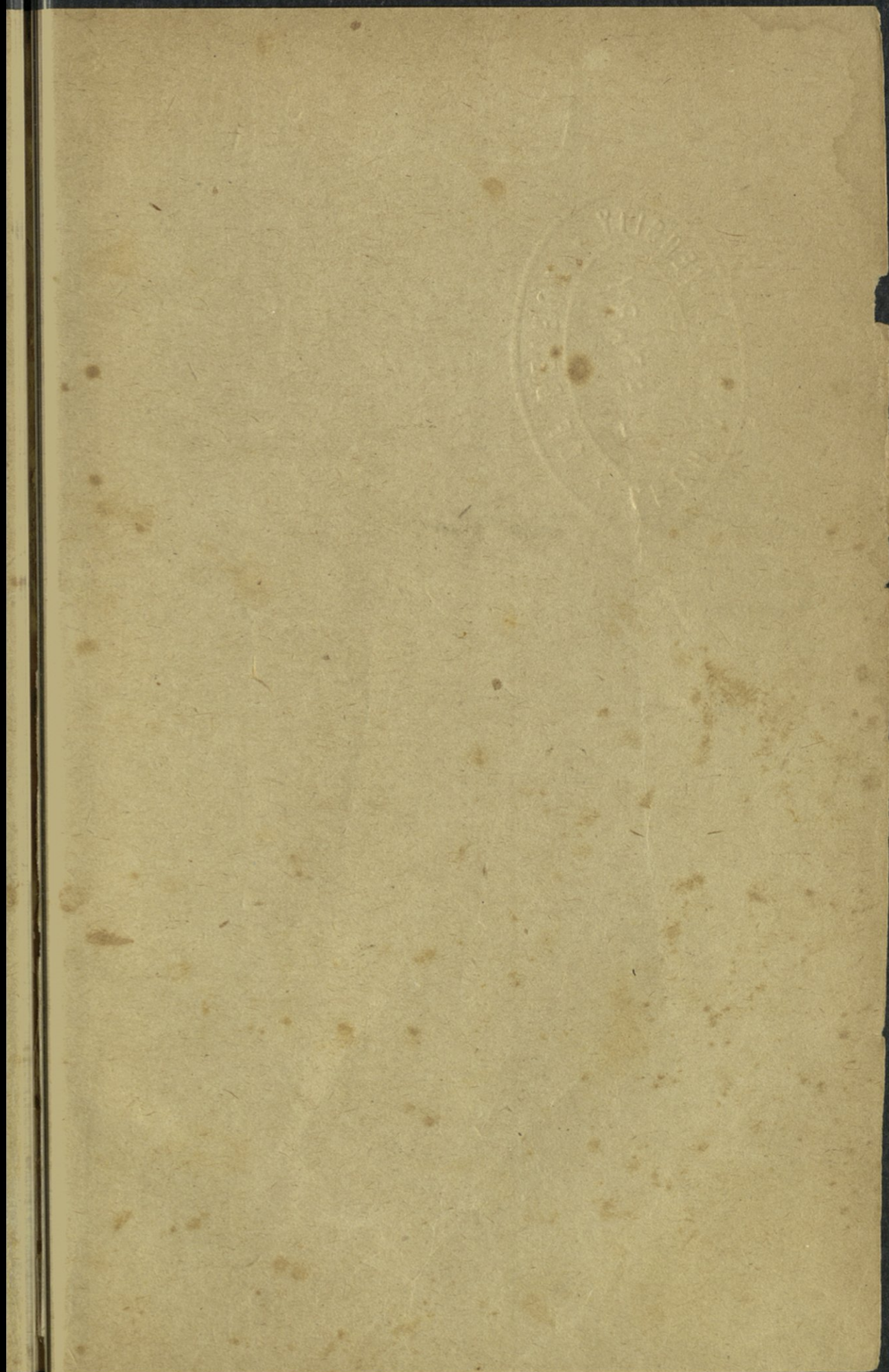
~~APR~~ 67

JAFET LIB

~~2 SEP~~ 1977







بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اهداء الكتاب

الى شبان مصر النجباء اهدي كتابي «ليالي الروح الحائر»
كتبتها اذ كنت أعيش بينهم وأشعر بعواطفهم وتداخل
نفسي الشكوك التي تخالج نفوسهم الفتية. فلعلمهم يجدون في
صفحه اجوبة للاسئلة التي يحارون في الجواب عليها، ولعل
صرخات الروح الحائر تصل الى اعماق قلوبهم كما خرجت
من اعماق قلبه !
محمد لطفي صحفة

القاهرة في ٥ مارس سنة ١٩١٢



جمعية الاتحاد المصري
بيروت
ليالي الروح الحائتر

الليلة الاولى

رثاء صديقي

كنت منذ ايام قليلة جالسا على حجر من أحجار الهرم الاكبر،
وادرك الغروب الشمس فغابت وراء الرمال المتراكمة على حدود
الصحراء، وتركت وراءها خيوطا من الذهب تم عن مخبأها وامتدت
تلك الخيوط الى النيل الجاري في سفح الاهرام فصبغته بلون قرمزي.
وكانت القاهرة بما ذنها وقبابها وقصورها وحدائقها وأهلها تبدو كصورة
منقوشة في الوادي، وحوها جبل المقطم كأنه سور يحمي مدينة الخلفاء.
وبرأسه حصن صلاح الدين العتيق كأنه اسد رابض على قمة الجبل
يرنو الى المدينة المحروسة وكان بيني وبين القاهرة سبيل ممد تحف به
الاشجار يقر به النظر للرأي، اما منظر النيل وهو محيط بتلك الطريق
فلم يكن اجمل منه شيء.

ولما ان اشبعت نفسي بهذا الجمال نظرت الى ماورائي، فاذا
الصحراء الكبرى بمفاوزها ودروبها الخفية تصافح المدينة ويوفق بينهما
النهر العظيم كما يوفق الحب بين البدوي والحضرية، فوقفت بين يدي الطبيعة
خاشعاً خاضعاً انظر الى البر تارة والى النهر اخرى، وارفع ببصري مرة

الى قمة الهرم فيغلي دمي في عروقي غيظا من رافع بنيانه وواضع جدراناه
لان صخوره دموع متحجرة اذرفها شعب شقي انجازاً شهوة ملك ظالم .
ثم اخفض به الى القاهرة وهي في السهل ، ساكنة هادئة كأنها باقة من
ازهار شتى في يد الوادي ، يشمها ابو الهول بانفه ويسقيها النهر بمائه
خوفاً عليها ان تذبل او تذوي .

اسدل الليل ستاره ، ولبست الصحراء ثوبا من سواد بنفسجي ،
وسمعت نغيب طيور الظلام وتجلت مدينة القاهرة في ثوب المساء المزركش
بالذهب . ثم لحقتني هزة فاعرورقت عيناى بالدموع عند ما نظرت وراء
الجبل لعلي ارى مدينة الاموات حيث يرقد ابناء الجيل الماضى و بعض
ابناء هذا الجيل في بيوت ضيقة مظلمة . نظرت الى حيث ظننت المقابر
وقلت هنا في حفرة من حفائر تلك البقعة ينام صديقي وحيداً منفرداً
عن المدينة وغوغائها ! ولم يبق منه الا عظام نخرة لم يبق من رأسه
الذي كان ممثلاً حزماً وعينيه المتقدتين عزماً وفمه الذي كان يتدفق
منه الدر والجوهر و صدره المملوء بالآمال والامانى وقلبه الكبير ويده
الايية وقدمه التي لم تسع الا الى مكرمة الا جمجمة خاوية ومحاجر
عائرة وفكين من العظم النخر ، اما مكن القلب ومسرح الآمال
وموطن الامانى فقد امسى قفصاً من العظام خالياً ، ويده تلك اليد التي
كانت تجود بما تملك وتكتب ماتملي عليها النفس المشتعلة فقد خمدت
قوتها وتبددت قبضتها وتلاشت أناملها ! هذا كل ما بقى من صديقي

مصطفى! ولكن كلا ان ما بقى هو اثر ما كنا نراه ونلمسه اما النار التي
كنا نشعر بوجودها فيه ولا نلمسها، نرى لهيبها ولا نراها، نحس باشتعالها
ولا نفهم معناها، فقد ذهبت الى مكان غير هذا القبر. بل هي لاتزال
مشتعلة في حيز لا اعرفه ولا اعرف اين هو! ايذهب صاحبي من
جاء وذهب؟ الا يسمع ابناء الاجيال القادمة آهته التي اخترقت نفسي
ليحزنوا كما حزنت ويتألموا لتلك النفس الهائمة كما تألمت؟ اني
اذكر اليوم الذي كنا به معا في سفينة في النيل وكنا نقرا
حياة احد العظماء كتبها صاحب له فقال لي عدني واعدك قلت بماذا
قال اذا مت قبلك ان تكتب عني كتاباً يكون سلوى امثالي الخزانى
الذين لا يسمع صوتهم الا من القبور واذا مت انت قبلي ان اكتب عنك
كتاباً يبكي من يقرأه قلت اعدك ولكن ماذا جلب اليك تلك الافكار
السوداء قال لاتقل سوداء ان املي في الخلود عظيم ولكن اريد ان
استعطف الانسانية على اخواني الذين يسوء حظ نفوسهم بما توتاه من
قوة واشتعال فيذهبون فريسة النار الكامنة ولعل في قصتي عبرة للمعتبرين
قلت اعدك. فلما ان جالت بنفسى تلك الذكرى سألتها:

متى افي بوعدى واوودي امانتي؟ لا بد من الوفاء مهما كلفني!

* * *

نهضت في صباح الجمعة مبكراً ونظرت من نافذة الغرفة فاذا
الشمس لاتزال متبرقة بغيام الشروق وكانت على مقربة من داري
بشعة في الارض بكر لم تفسد جمالها يد البناء ولم يدنسها البشر بمساكنهم
وفيهما نخيل لا تثمر انما هي ملجأ البلابل والطيور المغردة في الفجر ومحط
رحال الغربان عند الغروب فنظرت الى احداها وانا اسمع من خلال
جريدها اصوات طيور الصباح المطربة ولم اوشك ان اشعر بجمال الحياة
حتى ذكرت المموت وصور لي منظر الليلة البارحة التي قضيت اوائلها
في ظل الهرم فقلت اني اقضي يومي فقال لي صوت في نفسي عليك
بالمقابر وزر قبر صديقك الذي لو كان حيا زارك .

ولما بلغت القبور حملت زهوراً وثمرات وهرولت بين الاجداث
امشي على عظام الوف الالوف من بني الانسان رقدوا ولن ينهضوا
من تلك القبور مهما غردت الطيور بصوتها المطرب ومهما اشرفت
الشموس وبزغت الاقمار ومهما اسدل الليل ستوره او طلع النهار . اجل
لن ينهضهم نذب الناديين ولا نوح النائحين ولا حزن الحزانى ولا
جدل الفرحين لقد رقدوا الرقاد الطويل ولن يرثوا لمن يبكيهم مهما
طال امد العويل سرت اشق عباب تلك الرفات وكم رأس حازم
وصدر كاتم وطرف كحيل وخذ اسيل تحت قدمي جست خلال
المقابر وما كنت ارى على كل قبر الا كلمة من سطر او آية من
القرآن او بيتاً من الشعر او مثلاً من الامثال فقلت في نفسي اهذا كل

ما يبقى منك ايها الانسان القوي القادر يا من تدلل الماء والريح وتقطع الصحراء
وتقهر الوحوش وتشيد القصور وترفع العروش اهذا ما لك ا تلك الحفرة
من الارض هي كل نصيبك من الوجود وكنت لاترضى بالعالم نصيبا
وتتطلع الى السماء تريد منها السما كين وتهبط بنفسك الى المحيط
تستخرج النفيسين ايه لك ايتها الطبيعة القادرة لقد اسرت من اسرك
واذلت من اذلك وسخرك. وايه لك ايتها المقابر فانت مرقد الاوائل
والاواخر وعبرة الماضي وموعظة الحاضر! سرت اخبط في الارض حتى
بلغت بقعة لا تزيد سعتها عن سعة غرفة من منزلي طولا وعرضا
حشر فيها الموت جمعا لو بعث لساعته لضاق به حي باسره من احياء
القاهرة وفي وسط هذه البقعة الابدية قبر صغير عليه هيكل من الحجر
خلو من النقش والكتابة وقفت امامه حاسر الرأس خاشعا لانه يضم
رفات صديقي مصطفى .

ولم أكد ارفع بصري الى السماء عادة الانسان اذا شعر بضعفه
واحس بالقوة الكبرى التي تتلاشى حياها قوته وتفتى امامها صوته حتى
رايت الشمس قد اشرقت على الاموات والاحياء تبعت الى العالم
الارضى بالحرارة والنور والحياة وتبسط اشعتها على الاجداث كأنها
تقول ناموا بسلام آمنين فلما يأن آوان النهوض ان كنتم ناهضين .
وارسلت الشمس بشعاع من نورها على هيكل القبر فهاجني ذلك المنظر
المزعج وحمد له دمي في عروقي .

X تبالك يا قصور الاماني ويا صروح الآمال فقد خدعت
الاحياء حتى اسكتهم القبور وسحقا لك ايها المجد الباطل اغريت
بطلابك حتى اغريتهم بالغرور وتعسا لك ايها العيش الرخيم فانث
الشقاء وانت شر الشرور كانوا يطلبونك وليتهم رضوا بالعيش اليسير
ان الحكماء يبحثون عن الحقيقة ويقضون اعمارهم في النظر والتنقيب
ولو دروا لوجدوها في هذا الأحد الحقيرون هنا الحقيقة وما وراءها هذا هو
الغرض الذي نسعى اليه هذا ما آل البشر! أي جمال لم تدبل زهرته
واي حسن لم تذهب نضرتة واي ملك لم يحن حينه واي عظيم لم
يلحقه أجله وتدركه ساعته؟ ألم تستو الحفرة الضيقة بالجدث
الفخيم الجسيم اي فرق بين قبرك يا مصطفى وقبر نابليون بل اي
بون بين هيكلك وهيكله ألم يقد الوف الالوف ألم تطع اشارته
الحتوف ألم تدمر بامر المدائن فهل عاقه المجد عند ما دعاه الموت؟
هل خفف ألم النزع عنه حزن الارض والبحر؟

من يدرينا بان تلك البقعة الضيقة لا تضم رفات نابغة من النوابع
مات ولم يظهر نوره اشعلت الطبيعة نفسه وتركته تأكل بعضها من
ينكر على من مات قبل ان تنضج ثمرته وتفتح زهرته انه كان يليق
بعرش يرتقيه وتاج يلبسه وصولجان يتناوله ومملكة يدبر امرها . كم
من درة في قاع البحر لم تصل يد الغواص اليها! وكم زهرة نبتت في قفر
وجارت ريح السموم عليها فدفتها بعد ان ضاع اريجها في الفضاء

وتبدد عطرها في الهواء؟ كم شاعر صميم كسر الموت قيثاره وودفن الثرى
آثاره وختم الردى على شفثيه قبل ان يتغنى بقصائده . كم خطيب
منطيق لو مدّ في اجله ولم يقطع الردى حبال امله ملك زمام القلوب
وقبض على اعنة الافئدة واستهوى النفوس ولكن غلبه الموت على
امره واطفاً شعاعه قبل ان يبلغ امانيه .

X هنا في ذلك اللحد يرقد قى لم تعشقه الشهرة الكاذبة ولم تعره
رياءها ولم تلبسه الدنيا ثوبها ولم تسبغ عليه نعماءها جاء الى العالم وذهب
فودعه الذكاء وبكاه الكرم وناح عليه المجد فلتبكه السماء ان كان
لها قلب يحزن وعين تذرِف الدموع !

*
*
*

ولما عدت الى دارى بعد زيارة القبر اندفعت اتأمل في معجزة
الخلود وجاشت نفسي وتملكتني الجيرة فاخذت التمس لكل سر
معنى وابحث عن حل المسائل واستعرضت تاريخ البشر وعلومهم
فاذا هما قاصران عن تعليل الحقائق وتفسير كنهها بل هما لا يكادان
يكونان قطرة في محيط الوجود !

X يا ايها الانسانية العاجزة المسكينة يا ايها الصبية الضالة في مهامه
الكون الازلي الغارقة في بحر الظلمات من اين جئت والى اين تذهيين
ما هو مستقبلك القريب والبعيد . انى لا ارى سوى الظلام الخالك
خلفك وبين يديك !

السر
السر
السر

الليلة الثانية

صريت بمصر الامم

زارني الروح الخائر في بطن الليل وفي يده مصباحه فقال : اني متعب ولا اقوى الليلة على الحديث قلت لماذا وهل تتعب الارواح قال : ان تعب الارواح اشد من تعب الاجسام لاننا نشعر بالام لا نشعرون بها انتم .

قلت وكيف صار لك هذا التعب ؟

قال الا تعلم اني لا استقر على حال وانني افسأ اضرب في الارض شرقا وغربا اهبط السهول واصعد في الجبال مستطلعا احوال العالم لعلي اجد حلا لبعض المسائل ؟
قلت : لم اعلم هذا من قبل .

قال : اني قادم من بلاد قصية تسكنها امة عجيبة اسمها امة الهوز ولم اكن وردتها من قبل ولا كنت في حالنا الروحية اوتينا علم الاسن البشرية فرأيت جمعا عظيما في سفح جبل عال على ضفاف نهر قديم فدنوت فاذا في القوم خطيب يخطب فاستمعت الى قوله وقد وعيت معظمه فتوسلت الى الروح الخائر ان يعيد علي سمعي بعض ما سمع
قال : قال الخطيب :

« اخذ بعض المصلحين من افراد المجتمع الذي يسمى بالامة الهوزية
ينهضون الهمم وينبهون العزائم ليوقظوا قوماً مضت عليهم قرون وهم
في سكر لا يعقبه صحو بل موت لاحياة بعده • وتبعهم فريق من
الناس يحسبون ان هذه الاعمال الاجسام اثراً سوف يظهر في تلك
الاجسام ويعللون انفسهم بحياة قومية وبنهضة امة تعيد مجد الامة المرنية
ويعلو نجمها نجم الامة الضرغمية ولا يزال هؤلاء واولئك في غيهم
حتى يسفر الحق ويزهق الباطل ويظهر للجماعتين ان معجزات الانبياء
وعجائب المرسلين لا تفيد فيمن سلبت منهم اسباب الحياة وحينئذ يبدو
لهم صدق قول القائل لا يصلح العطار ما افسده الدهر .

ولا يسبقن الى ذهن من يسمع هذا الكلام اني انطق بلسان
الناقم او الخاقد انما انا انطق بلسان الناصح الموجه ومثلي كمثل ولد
علمه ابوه الطب ولحق اباه مرض عتيد فاستدعاه وسأله راية فقال له
ما يعلم ويعتقد .

ولا يخطرن ببالكم اني اقول هذا القول المحزن جزافاً
وارمي حبل الكلام على غاربه انما اقول ما اعتقد واقرر ما ايد
صدقه لدي الاختبار وقد ولد ذلك الاختبار في نفسي ادلة وبراهين

يستحيل نقضها ويصعب دحضها

رأيت ان في الامم الراقية اربع علامات لا تخلو منها امة وان
خلت من بعضها لا تخلو من معظمها ويكون فيها جرائم بعض تلك

العلامات ان كان ذلك البعض خفياً.

العلامة الاولى التضامن الجنسي والثانية ظهور افراد لدى الشدائد
والازمات ينثرون ظامة الشك ويقضون على عوامل الضعف وينهضون
بالامة نهضة ممدوحة تستجد بها ما فقدته في كبوتها والعلامة الثالثة
تفاني قواد الراي في المنفعة العامة وتلاشيهم في خدمة الامة وبعبارة
اخرى موت عاطفة الاثرة من نفوسهم والعلامة الرابعة ظهور آثار
النشوء والارتقاء في افراد الامة تلك العلامات الاربع ماخلت منها امة
الا كان ذلك ايذاناً بموتها ودليلاً واضحاً على دنوا اجلها ودمارها

اما العلامة الاولى وهي التضامن الجنسي فرابطة لايجمل نفعها
لاني اذا لم تربطني بجاري رابطة غير الجوار كصحبة متينة او نفع
مشترك دائم لايسوءني مايسوءه ولايسرني مايسره الا تظاهراً ومجاملة
كذلك اذا لم تربطني بأبي رابطة سوى انه انفق عليّ في طفولتي
وسهر عليّ في فتوتي فلا يأتي يوم زوال تلك المنفعة الا وهو لي كغيره
من الرجال اذن لا بد من رابطة دم ومبدأ وفكر او بعبارة اوضح
رابطة تشبه مايربط افراد الاسرة او اسرات القبيلة فاذا لم تكن هذه
الرابطة في الامة فلا يمكن ان يوفق بين افرادها الا ريثما تهدأ العاصفة
وهذا مجموعنا انظروا فيه حينما شتم واخصوه كيفما اردتم لاترون
به اثراً لتلك الرابطة الجنسية وقد قال لي اجني عاقل لقد حاوات
ان اعد الشعوب والامم التي تألف منها مجموع سكان الجمهورية

البنجلوسية الكبرى فافلحت في ذلك وحاولت مثل ذلك العمل في
بلدكم فلم افلح وقد صدق هذا القائل فان فينا من كل معنى طرب
بل توجد في الشخص الواحد آثار مائة امة وهذا راجع الى اجداده
وآبائه ومولده والوسط الذي عاش فيه والتربية التي نشأ عليها وطباعه
الغريزية واخلاقه التي اكتسبها فاذا كان في الفرد كل تلك العجائب
فما بالك بالمجموع؟

هذه امة هوز لا يوجد فيها اثنان يتفقان على رأي واحد في اهم
ماليهم من المسائل وان اتفقا في الفروع اختلفا في الاصول وليس
هذا الاختلاف عجيبا او مستغربا انما هو نتيجة الاضطراب وهيهات
ان ينتج التعدد وحدة او تلد الفوضى نظاماً !

هذه الجمهورية البنجلوسية العظيمة مؤلفة من عنصرين عظيمين
الاول عنصر معروف يربط افراده الدين واللسان والطبع والمنفعة وهو
العنصر الغيصوني والعنصر الثاني خليط من اعم اخرى آوى الى رحاب
العنصر الاول والف على ممر الزمن وتعاقب السنين عنصر اجديده هو
عنصر الدخلاء ولما كان من نواميس الطبيعة الثابتة ان الكل يجتذب
الجزء كذلك تمكن العنصر الغيصوني بقوته من اجتذاب عنصر الدخلاء
فالتحما ووقف في حروب تلك الجمهورية الغيصوني الى جانب الدرعي
والايطالي الى جانب الاسباني واليوناني الى جانب الزنجي كلهم تحت
لواء واحد وامرة واحدة يدفعون عدواً واحداً ويدافعون عن غرض

واحد اما نحن في هوز فهيات أن يجمعنا ما هو أشد من الموت .
اما العلامة الثانية وهي ظهور افراد اشداء لدى الازمات والشدائد
فمثلها في الامم كمثل السم في الافعى والقرن في الثور والاذن في الاسد
فهذه قوى كامنة لا تظهرها الا الاخطار ولا تخرجها من حيز السكون الى
حيز الحركة الا الالهوال والمصائب . اصدع افعى تلذعك وهج غضب
ثور ينطحك وغظ اسداً يفترسك ~~كذلك~~ كذلك الامم الحية اذا اغتصبت
حقوقها جاربتك واذا آلمتها آلمتك واذا كان بينها وبينك ثار لا تنساه
او تثار لنفسها واذا اردنا ضرب الامثال قلبنا صحف التاريخ رأينا
تمستوكل وديموستين في اثينا وهنريال في قرطاجنه وقيصر وتراجان
في رومة ومحمد في بلاد العرب وشارل مارتيل و نابليون في فرنسا و كرومويل
في انكلترا ووشنجتون في امريكا و بطرس الاكبر في روسيا و متسوهيتو
في اليابان وبيسارك في المانيا و غاريلدي في ايطاليا و كوشوت في النمسا هولاء
الاشخاص وغيرهم ممن انهضوا الامم ولموا شعها و احيوا امواتها و اعادوا لها
قوتها هم اسلحة الامم هم قرن تلك الشعوب و برائنها هم خلاصتها و زبدتها
فردهم بامة و واحد هم بألوف مؤلفة خذ واحداً من هؤلاء الابطال و اتمعن
النظر في تاريخ نشأته تر ان فيه صفات شتى وقوى مختلفة و غرائز
كثيرة لم تجتمع لغيره و كلها مجتمعة في امته هؤلاء هم روح جسم
الامة و قد يظهر ذلك باجلى و اعظم مظاهره اذا التقى اثنان منهم في ميدان
فقد التقت امتان فهما اذا تشابهتا فقد تشابه شعبان واذا اختلفتا و فاز واحد

فقد فاز عنصر على عنصر وانتصر عضو من جسم الانسانية على عضو
آخر . ظهر كل بطل من هؤلاء الابطال في وقت بلغ فيه الضنك والضيقة
من الامم مبلغها فاهى الا طرفة عين الا انفرجت ازمتها
وزالت مصيبتها وحسن طالعها وعلا نجمها . كلهم قاسوا احوالها
شداداً وعاكسهم الزمان وقاومتهم احوال لا عدد لها ولكن كلهم
خرج من ميدان الوغى منصوراً ظافراً وكلهم خط على جبين
الدهر اسمه باحرف لا تزول . ان موسى نبي بني اسرائيل وواحد هم
لما ان عجز عن هديهم وفشل في اصلاح شوئهم اتى بمعجزة اعجب
عندي مما يقال عن قلب نظام الطبيعة باختراق البحر واغراق فرعون
وجنوده هي انه اطلق هؤلاء الضالين في وادي التيه وهو بينهم
اربعين عاماً حتى مات شيوخهم ونشأ منهم جيل بعد جيل وشعب
جديد لا يشبه الشعب القديم ومات موسى كغيره وقد اتم عمله بعد
موته . موسى بطل نفع قومه بموته كما نفع محمد قومه بحياته .

انظر الى بلادنا واستعد تاريخها منذ اخى الدهر على دورها
الاول دور المجد الباذخ والعز الشامخ فهل ترى فيها واحداً من هؤلاء
الابطال؟ عجباً أينخلق ثور بلا قرن ويولد أسد بلا برائن . كلا لا غرابة
في الامر ولا عجب انما هوز حيوان عجيب ليس له نوع يعرف ولا
جنس يوصف وقد يكون من فئات الطبيعة واذا نسينا ذلك الماضي

ونظرنا الى الحاضر فاين سلاحنا؟ ان اجنبياً اقامنا واجنبياً اقعدا و اجنبياً
احيانا و آخر يميئنا.

لقد ظهر فينا رجال في اشد ازماننا فكان مثلهم كمثل شبح والد
همليت ينذر بالويلات ويشحذ الهمم الى حين ثم يعود فيصير اول
المخدواين من قومه وهم قوم ييوحون بالاسرار ولا يطلبون بالثار ولا يفرون
اذا لاح ضوء النهار اننا اليوم وغداً في ازمة من اشد الازمات وقد وقعت
بنا نكبة من افطع النكبات فاين السم الذي تقاوم به واين القرن الذي
نهاجم به قرنتنا بل اين الذيل الذي نذب به الحشرات والهوام
انه من المستحيل ان يناقض المرء نفسه ولكن الايغال في الحيرة
يفقد المرء صوابه وقد فقد الباحثون في امر هذه الامة صوابهم وغاب
عنهم رشدهم. وتسامح بعضهم فاستباح فرضاً مستحيلاً وقال: لنفرض
ان لهذه البقرة قرناً وان بيننا رجالا يعملون فهل تم فيهم الشرط
الثالث وهو العلامة الثالثة. هل يتفانى قواد رأينا في المنفعة العامة وهل
يتلاشون في خدمة الامة؟

لو كان للتأكيد الف نوع لا أكدت نفي ذلك الشرط وانكرت
تلك العلامة بسائر انواع التوكيد جميعاً.

أليس من العار ان يسجل المرء على نفسه عاراً لا يمحوه الدهر
اليس من نكد الدنيا على المرء ان يرى في ذاته عيباً وليس له من

الاقرار به من مفر . ولكن أليس الحق أحق بان يتبع ، ليس هذا الامر
من الجلاء بحيث لا يحتاج الى بيان ؛ أجل ان الحقيقة مؤلمة ولكن
دواءها في الاقرار بها .

ان قادة رأينا هم الاشباح التي تروح وتغدو امامنا يخدعنا مظهرها
ويحزننا مخبرها . ان تلك التماثيل ليست الا آلات في يد محرك
يحركها ولا تظهر عيوبها كلها الا بمحك الحوادث وقد ظهرت تلك
العيوب و بانت كحفر الجدرى في وجه المصاب فاغضينا وتعامينا وقتلنا
هذا القبح حسن باهر وذلك العيب جمال ظاهر .

أي لص دنيء ممن يسمون نفوسهم بالباطل عطاء وروءساء
لا يسكن قصرًا فخماً ولا يركب عجلة غالية ولا يكنز الذهب ولا
يطير لبه وراء الرتب بل أي كلب من تلك الكلاب الرجسة لا يدعي
غير ما يبطن ويظهر غير ما يخفي وأي فحل من فحولنا لم تغيره الايام
ولم تبدله الحوادث بل أي خنزير من تلك الخنازير لم يقل في سره
ان لم يقل في جهره « بعدي الطوفان » .

تعساً لك ايتها الاسلحة فانك لا تجرحين وسحقاً لك ايتها القرون
فانت لا تنطحين وآسفاه عليك ايتها الامة فانت بلا مدافع شجاع
ولا حارس امين .

اما العلامة الرابعة وهي ام تلك العلام وبرهانها اقوى البراهين

وهي ظهور آثار النشوء والارتقاء في افراد الامة . والمقصود بتلك
العلامة ان يكون الحفيد ارقى من الوالد والوالد ارقى من الجد . وهذه
العلامة مشاهدة في الامم الحية الراقية فالمؤلف العظيم يخلف مؤلفاً اعظم
والشاعر الكبير يلد شاعراً اكبر والطبيب الماهر يمنح وطنه طبيباً
أحذق منه وامهر . وليس من الشروط المهمة ان يكون الولد في حرفة
ايه انما الشرط المهم ان يكون ارقى منه بأية حال . واسباب ذلك
راجعة الى روح النشوء والارتقاء الظاهرة باجلى مظاهرها في عناصر
الطبيعة وفي حياة الانسان منذ الخليقة الى الآن . ولست اقصد بما
ذكرت النوابع الافذاذ في كل امة فقد يرد عليّ منتقداً بان نابوليون
اخلف غلاماً ضعيفاً ضئيلاً وان فيكتور هيجو لم يلد غلاماً ذكياً وليس
هذا ما اقصد لان هؤلاء كما ذكرت خلاصة الامم وهم ارقى ما وصلت
اليه الطبيعة في خلق الانسان فلا يعقل انها تخرج عن حدها وتنتج
اعظم منهم والا كان ذلك انطلف الاعظم هو المقصود بالذات انما
اقصد عامة الامة واوساطها . وقد دلت التجارب والاختبار ان الامم
في ابان نهضتها تنتج جيلا ارقى من جيل وكانت هذه النظرية من اصول
حصر ارث الملك في الولد الرشيد .

وهذه الامة الهوزية قد دلت الخبرة فيها على عكس ذلك
فابن اليوم اقل من والده ذكاءً واطف جناناً وخلقاً واميل الى

الذل والصق بالجهل . وكذلك حال ابيه بالنسبة الى جده وقد عرفت
اسرة عاشرت افرادها فرداً فرداً فاذا الجدر ياضي ماهر يحل المعضل
والمشكل ولم يكن تعلم تعليماً حديثاً فلما اخلف ولداً لم يأل جهداً في
تهذيبه ارقى تهذيب فحاء الولد اضعف في فنه من والده ثم اخلف هذا
الولد ولداً فلم يهمل شأنه وزاد على تربيته ان سيره على دربه وخرجه
في حرفته بعد ان حاول ان يعلمه غير علم . فلم يفلح .

وكان السكوت شاملاً والقوم كأن الطير على رؤوسهم ثم ان
الخطيب سكت قليلاً وقال :

« هذا قولي قلته في ملاء منكم معتقدا اني اقول الحق غير هيب
فيه اللوم والذم ومن كان لديه قول ينقضه او ادلة تفنده فاني اصغى
اليه وانبصحكم باتباع رأيه . »

فرايت في الجمع هرجاء ومرجاء وصعدت اصواتهم الى عنان السماء
وانبرى كثيرون الى المنبر المنصوب . ولكن قد تولاني التعب ونزل
الجزن بنفسي مما سمعت فاسرعت عائداً فطفت في طريقي بجبال
شامخة ووديان خصبة وانهر عذبة .

قلت للروح الحائر : كيف تفسر هذا القول من مصلح واعظ يخاطب
في قومه فينعيمهم لانفسهم ويرثيهم على مسمع منهم . قال اظنه اراد
ان ينهض همهم فعمد الى الاستحثاث بالتحويف والاستنهاض بالوعيد
واستودعك الله ليلتنا هذه وموعدنا الليلة الثالثة .

الليلة الثالثة

عند سقوط الشرق

زارني الروح الحائر وانا أبحث في علل سقوط الشرق ونهوض
الغرب . فقال لي :

« اراك مطرقاً مفكراً كأنه موكول اليك تدير الامم ولم شعث
الشعوب » قلت : « اتى افكر في اسباب سقوطنا ونهوض غيرنا من
الامم » قال : « ان الخطب سهل وان من لا يرى علل ذلك السقوط
رأي العيان فهو لا شك اعمه » قلت : « اني ارى بعض الاسباب
ويغيب عني بعضها » قال : « ان كنت ترى اهمها فهذا افضل من
حال من يخفى عليه كبير الامور وتبدو له صفائرها » قلت : « وأي
الاسباب اكبر » قال : « ظننتك تعرف » قلت : « اظنه ضعفاً في
وقت اصبحت القوة فيه عماد الامم » قال : « كلا » قلت : « اظنه جهلنا
في عهد العلم والنور » قال : « كلا » قلت : « اذن ماذا » قال : « انه
بغض العضاء » قلت : « وكيف ذلك ؟ » قال : « ان بغض العضاء في
الشرق اكبر المصائب التي اصابتنا ولا نزال نعمل بها على تدمير
البقية الباقية من حياتنا القومية فما نبغ في هذه الامة نابغ الا جردنا
في وجهه اسياف الحقد والحسد وما تركناه الا مضرجا بدمائه

فنعود على نفوسنا باللائمة ونقول لقد كان فينا علماً في رأسه نار
نهتدي بهديه ونسترشد برشده

وهذه بلا ريب تقيصة من النقائص اللاصقة بالامم المنحطة وهي
اثر من آثار الهمجية الاولى فقد كان اجدادنا سكان الاحراش
وابناء الادغال والآجام اهل العصر الحجري يخشون ان يثبت فيهم
فرد نباتاً حسناً فيقوى عليهم وتسلطه قوته في اعناقهم او يقتال ملهم
وما لديهم ارضاء لنفسه الضخمة وارادته القوية وشهوته التي لا تبرد نارها
وهذا كذلك اثر من آثار تنازع البقاء بين طبقات الحيوان السفلى
والعليا لذا يروى الحكماء خرافة الوحوش الضئيلة التي تأمرت فيما
بينها على الاسد وهو ملكها واشدها بأساً واقواها بطشاً لتفتك به
وتستريح من شره . ولكن لا تلبث تلك الحيوانات ان تقتل سيدها
ومولاها ومرجعها في امورها ومعتمدها في ضيقها ومنقدها مما يحيق بها
وهو الذي خصته الطبيعة بقوة فوق قوتها وعزيمة اشد من عزيمتها حتى
يقوم منها من يخلفه في بأسه وشدته وقوة بطشه وشراسته . ولا يفرغ
الثعلب وابن آوى من دس الدسيسة حتى يشرعا في تدبير مؤامرة
ثانية للخلاص من المولى الجديد .

هذه قصة من اساطير الاولين وضعها الحكماء والمرشدون
لتكون فيها عظة لقوم يعقلون . وها نحن نرى امامنا قوانين الطبيعة

وسنتها دائرة على محور الانتظام وسائرة على خط مستقيم ونرى تلك
القوانين العادلة في اعمالنا نحن البشر كما نرى نور الشمس وضوء القمر
ولكن قل فينا من اتعظ واعتبر .

هذه صحف تاريخنا السوداء قلبها كيف شئت تر من آثار
حقنا على عظمائنا وغيظنا من النابغين فينا وحسدنا لكل ذي نعمة
لم تهيبها لنا الطبيعة ما لا تحتاج بعده الى برهان على اثبات قرب عهدنا
بالحياة الوحشية وتماثلها بيننا وبين العجاوات .

وقد علم العلماء الاخلاق هذه النقيصة بانها داء من ادواء
النفوس الصغيرة التي لا ترى لدواتها فضيلة من الفضائل وتأبى
ان ينفرد غيرها بالكمال . وقرر هؤلاء العلماء ان النفس الكبيرة
تسرب بالنفس التي تشبهها وتماثلها وتشد ازرها وتناصرها ولا تتسرب
اليها الغيرة ولا ياتيها الحقد من بين يديها او خلفها .

وهذا التعليل واضح فالنور لا ينقص النور والقوة لا تنقص القوة
ولكن الظلمة ضرة الضياء والضعفاء اعداء الاقوياء . ولكن تلك
النفوس الصغيرة الضئيلة لو تأملت قليلا ترجع عن غيرها لساعتها فمهما
اختفى الحق لا بد من ظهور نوره .

أيتها النفوس الصغيرة ولا احقرك ولا ألومك على صغرك فقد
ارادت لك الطبيعة ان تكوني كما انت وهيات لك شروطاً واحوالاً

وبيئات وأشخاصاً وأعمالاً وبعثت اليك بعوامل ظاهرة وأخرى خفية
فبرزت للعالم كما انت فلماذا يحزنك الامر وهو قضاء الطبيعة وقدرها.
لو كنت تحملين أكثر مما انت حاملة لو كنت اليك الطبيعة احمالاً
جهد طاقتك ولكن لكل وعاء ما يسع وليس فيك لما في غيرك متسع.
عجباً كيف يجوز للشعلة الضئيلة ان تحسد الشمس المشرقة على
نورها وكيف يجوز للارض الدنيئة ان تطاول السماء الرفيعة بل كيف
يحق للاصداف ان تحقد على الجواهر وتنكر عليها بهاءها؟

اذا انفردت الشمس باضاءة الارض على سموها وزهاء نورها
خسر الناس ربع أعمارهم وهي الليالي التي يستضيئون فيها بالقمر
والكواكب والانوار المبتدعة واذا اكتفينا بالجواهر احتاج غيرنا الى
الاصداف ولا يمكن للفرد مهما كان عظيماً وقوياً ان ينوب عن الكل.

فيا أيتها النفوس الصغيرة اننا في حاجة اليك انا نطلبك كما نطلب
النفوس الكبيرة ولكن الطبيعة العادلة تأتي ان تستوي انت وغيرك
من النفوس الكبيرة لان لكل نفس عنصراً خاصاً بها وعنصر كقل
من عنصرها وقدرك اضعف من قدرها.

ايتها النفوس الصغيرة اقنعي بعيشك وعملك واخل عنك امر
غيرك. ان الفلك لا يدور بالاقمار والكواكب السيارة انما فيه من
النجوم ما لا يبلغ قدر ذرة ولكن قد تضيء تلك الذرة بقعة من الارض

لا ينفذ اليها نور الشمس ولا ضوء القمر . كذلك قد تقوم نفس صغيرة بما لا تستطيعه نفس كبيرة .

× اذا قام عظيم باصلاح امة وهدى شعب فقد يقوم غيره ممن لم يقسم لهم نصيب كنصيبه بسد حاجة عيلة يعولها . ولو ارادت الشعري اليمانية او المريخ او الزهرة ان تنال منال الشمس وسارت على دربها غيرها من الكواكب اختل نظام الفلك واعتلت هيئة الاجرام وزال ما نراه من القبة الزرقاء من الابداع والاحكام . كذلك اذا ارادت نفس صغيرة ان تنال منالا غير منالها ونسج غيرها على منوالها فسد نظام الحياة وصار الامر فوضى لا قوام له ولا قائمة .

× يقول صغار العقول وضعاف الاحلام هذا العظيم الكبير يستصغرننا ويحتقر شأننا وبشمخ بانفه علينا ويدعي بانه ليس منا ولو كان متواضعاً حملناه على الاكف والاعتناق .

× نقول كذبتكم وانتم على انفسكم شاهدون لو كان متواضعاً وطأتموه باقدامكم واخذتم تواضعه حجة عليه لاله وكم من متواضع بيننا يؤخذ برجله ويجر وهو جدير بأن يؤخذ بيده ويبر . اما كبرياءه وشموخه فدعوها ودعوه فهو ليس منكم دعوه ان في نفسه نوراً ليس في نفوسكم دعوه ان في فؤاده ناراً لا تشعل افئدتكم دعوه ان في روحه من الكهر باء ما لا تطيقه نفوسكم الا يكفيكم انه يعيش بينكم في ذلك العالم

المملوء بالمعائب والاقذار الا يكفيكم انه يرشدكم ويهديكم؟ كيف
تكلفون النفس القوية ان تلتئم مع الجسد الضعيف بل كيف تريدون
من الطبيعة اكثر من ان تجمع بين النار والماء في وعاء

يا امم الشرق تناديك نفس موجعة ويستغيث بك روح حائر.

فاسمعي وعي. ان هلاكك في تدابرك وتباغضك وتنافرك. يا امم

الشرق كفاك ما انت فيه من الوهن وما يتوعدك من ضروب الدمار
والهلاك. انك كالحية سمها كامن في بدنها ولا يؤذيها ما دامت
لا تنفته فيه. ايتها الامم مجدي عظامك دون السوى. وناصري
الاقوياء ينصروك.

يا امم الشرق ما مات فيك كبير الاوراءه صحيفة سودتها
نقائصك تدل على قصر نظرك وضيق نطاق عقلك. كم من حكيم
ذاق حنقه عقاباً له على حب العدل والحق وكم من عظيم اراد ان ينير
لك غياهب الدهور القادمة فاطفأت شعلته قبل ان يضيء لك محجتك
ويهديك سواء السبيل.

يا امم الشرق ان الطبيعة تعفو وتغفر ولكن الخليم شديد الانتقام
ومن عفا اليوم عاقب غداً. ومن غفر بالامس ينتقم اليوم.

يا امم الشرق انظري الى الامم التي ورثت مجدك وغلبتك على امرك

وداستك تحت اقدامها وجلست منك مجلس السيد من العبد والظالم
من المظلوم . ان تلك الامم حلت لغز الحياة وسبرت غور الطبيعة
وعرفت كنه المسائل التي تقفين امامها ذاهلة حائرة . ان تلك الامم
تبجل عظماءها وتمجدهم وتتخذ منهم هداية ومرشدين لا ترد لهم قولاً ولا رأياً؟

فيا امم الشرق ان شئت ان تنالي منالها وتبلغي مجدها او تستردي
مجدك الضائع وتقيمي ركن عزك المنقوض فاهدي معابد البهتان وارفعي
لكل عظيم عماداً واقيمي لكل كبير تمثالاً يكون موضع السجادات .

يا امم الشرق هذه كلمة اقولها ولا ازيد عليها قد لا تصل الى
آذانك بل قد لا تستأذن على مسامع امتي التي انتسب اليها وابناء
وطني الذين انتمى اليهم . فاذا لم تكن نصيحة تسمع وتقبل ويعمل
بها فلتسكن نفثة مصدر تفرج الكرب وآهة محزون تقلل من حزن
النفس والقلب . »

ولما ان فرغ الروح الخائر من هذا القول اخذته هزة فاختلج
المصباح الذي في يده فقال لي وهو يختفي عني في الاثير المحيط به موعداً
الليلة الرابعة

الليلة الثالثة
الحمد الربيعي

الذي رطبي علي
٢٨

الليلة الرابعة

غرور الناس بالناس

كنت في حيرة من الحياة اناجي نفسي تارة واعقها طوراً
وإذا بي أرى شعاع مصباح الروح الخائر فقلت الى ايها الروح فانك
على حيرتك اكثر مني هدى اني اسمع في هذه الايام قولهم هذا
هو الذوق الشائع وذاك هو الرأي العام ولست أفهم لهذا معنى .

قال الروح الخائر : « اني اذا ذكرت بعض حوادث حياتي
الارضية وما كنت فيه من القيود المرذولة التي اقتضتها العيشة المادية
تنفست الصعداء وحمدت الله على الخلاص من هذا البلاء واني اذكر
ما قاسيته من البشر وانا في الجسم الذي البالي كما يذكر المتيقظ حلاًماً مزعجاً
ولكن هناك بعض الشوون فطنت لها وتجلت علي الحقائق خلالها
فسعدت بها وانا في الحياة الدنيا . فقد كشف لي يوماً عن حقيقة
غرور الناس او بدعة الرأي العام » قلت : « حدثني فلعلني اهتدي
بقولك » قال : —

من عجائب الحياة الارضية ومن غرائب خلائق البشر ان
نصف العالم يعيش متنكراً والنصف الآخر يعيش مخدوعاً فلا
النصف الاول يخلع قناع التنكر ولا النصف الآخر يستشف ما
اختلف وراءه من الحقائق المخالفة للظواهر . وليس هذا راجعاً الى

حذق البعض وغباوة البعض الآخر انما الواقع هو ان الكل قد بلغوا
النهاية من البلاهة والغاية القصوى من الغفلة . ولا ريب في انه يصعب
التسليم بصدق هذه القضية لاول وهلة كما انه يصعب علي ان ادونها
لاني لست الا بعض البشر ولكنني ما دونتها الا بعد ان تحققتها
وما تحققتها الا بعد التأمل في حالي وحال غيري ممن رأيتهم وخبرتهم .
فكنت اذا اردت ان احكم على نفسي في شيء من الاشياء اندفعت
افعل ما اريد بلا حساب ثم جردت من نفسي شخصاً يحكم على ما
اكتسبت وكنت ابدأ اذا سمعت حكم نفسي على نفسي او حكم
نفسي وهي في صحوها عليها وهي في سكرها عدت عليها بالائمة وما
أعد لها من الحسنات الا النزر اليسير وقد أكون في ما عدت منها
X مخدوعاً مغروراً وكثيراً ما كنت اذا سمعت حكم نفسي على نفسي
اضحك منها هازئاً بها وبغيرها من النفوس وشر البلية ما يضحك .

وقد بقيت هذه القضية كامنة تجول في صدري ولا استطيع ان
اخرجها لعجزني عن التعبير عنها حتى اختمرت ثم حدث المرة بعد
المرة ما هاجها وهي ناضجة ففلتت مني قبل ان اعوقها فتركتها
تخرج للناس .

اما وقد مهدت هذا التمهد ليسهل عليك فهم ما اريد فيها
انا اشرع في التفصيل .

كنت مرة في الحياة الارضية في محفل حافل بكثيرين ممن يسمون
انفسهم اصحاب السعادة والعزة ويصفونها بالعلم والفضل والذكاء .
فاذا دعاهم داعٍ بغيرها او اغفلها غضوا عنه الطرف وعدوا فعله اهانة
لخمتهم ومذلة اصابتهم كنت بين هؤلاء غريباً عنهم لا لاني
لا اعرفهم انما لاني لست من طغمتهم ولذا كنت خارجاً عن
دائرهم لا يخذعني ما يخذعهم ولا يسرني ما يسرهم ولا يطيب
لي ما يطيب لهم فاستطعت ان احكم عليهم حكماً ان لم يكن العدل
بعينه فهو اقرب الاحكام اليه .

هؤلاء القوم دعاهم احدهم ليخطب فيهم فلبوا دعوته وفي كل
قلب من قلوبهم ما يشغله • فبعضهم جاء ليلقي صاحباً له وفاء بوعد
سابق وبعضهم جاء ليري الناس ثوباً جديداً وبعضهم جاء ليقتل
الوقت فراراً من الضجر والبعض جاء ليقال عنه انه يدعى الى المحافل
ويفهم ما يقوله العلماء اما الرغبة في سماع ما يقال فقد لا تتعدى بعض
افراد قلائل .

دخلت مع الداخلين وجلست مع الجالسين واصغيت اصغاء
الحاضرين فاذا الخطيب يقول ما لا يعي واذا نحن ندعي فهم ما لا نفهم
كان الخطيب عالماً من العلماء مشهوراً بالفضل وقد جاء الكل
طمعاً في شهرته واعتماداً على صيته فوقف يخطب وهو ممتليء غروراً

بنفسه واعجاباً بفصاحته وطلاقة لسانه واعجاز بيانه ولكن السامعين
لم يجدوا منه ما كانوا ينتظرون ولكنهم وجد منهم الاصفاء والسكون
فاندفع يصدعنا بركاكاته ويجلد مسامعنا بترهاته وكلنا شاعر بقلة عقله
بعد ان ظهرت حقيقة علمه وفضله ولكننا والأسفي عاجزون عن نصحه.

كنت اشعر بالتململ ذات اليمين وأسمع الفاظ التأفف والتضجر
ذات الشمال وتقرع اذني كلمات الندم على ذهاب الوقت هباء
فاردت ان اجس نبض الحاضرين لاثبت من تلك القضية فسألت
جاري أفاهم انت ما يقول فقال كلا ولكنني متضجر فملت الى غيره
وقلت له ايلد لك سماع تلك الخطبة فقال لي ان ضرب السياط احب
الىّ منها فنظرت الى ثالث وكنت اعرف فيه ما نسميه بالحياء وسألته
عن فصاحة الخطيب ومقدار علمه فابتسم لسمة مبهمة .

فدهشت خلوا هذا الجمع كله من رجل كريم النفس قوي القلب
والارادة ينوب عن الحاضرين في التعبير عما يجول في خواطرهم بل
كان الكل جالسين صامتين كأنهم يخشون العقاب. فمن المعلوم في مثل
هذا المحفل العجيب؟ ايلام الخطيب وقد امتلاً غروراً بنفسه من
ثناء الناس عليه ثناء كاذباً ام نلوم الناس وكلهم خادع مخدوع يوقع
البعض بالبعض سعياً وراء منفعة او جبناً وخوفاً من ان يوصموا بضعف
العقل والعجز عن تقدير الفضل وذويه؟

ان ذلك الحادث الصغير اساس كل امر كبير لان ما يحدث في
تلك الحفلة الصغيرة بين هؤلاء «الفضلاء الاذكياء والعلماء النجباء»
يحدث في كل مكان . وما يصدق على هذه الامة يصدق على
غيرها من الامم الراقية وقد تكون الشعوب المنحطة اكثر حبا
للحرية وابتعد عن قيود التقاليد الاجتماعية من غيرها فهي من هذه
الوجهة افضل من بلاد العلم والمدنية .

اجل ما يصدق على هذا الخطيب ومن التفوا حوله يصدق
على الكبراء . فليس الكبير الا فرداً ساقته له المصادفات مجداً
والبسته صروف الدهر حللاً وقلده طوارىء الحداث مقاليد البطش
وقد رضع الملق مع اللبن ونشأ في قوم يعظمونه لالفضيلة فيه ويهابونه
لالبطش يتقونه وعاش في وسط كل من فيه عبيده وخدمه اذا قال
فعل واذا امر اتمه الطاعة منقاداً فهو لا يرى نفسه عبداً الا لشهوته
والضعفاء والصغار من حوله لا يعلمون من امره شيئاً سوى انه الفعال
لما يريد .

وقد يكون من طبعه الخوف من الفىء والفرع من لاشيء كما
هي حال هؤلاء الذين لم يعرفوا من الشدائد الا وصفها ولم يذوقوا
من الحياة الا قصفها انما ورثوا سوء الخلق وشراسة الطبع عن

ابائهم واجدادهم الذين نشأوا منشأهم وعاشوا عيشهم . وقد تفيد
الحماقة حيث لا علم ولا معرفة فيظنها الاغبياء عزماً ثابتاً وارادة قوية
لا تززعها العواصف ولا تقلقها رياح الدهر القواصف . حتى ان
الاغبياء يقصون عن غنى كبير من نوادر طفولته ان شيخاً دعاه يوماً
وهو طفل بلقب من القاب الدلال فالتفت الطفل اليه مغضباً
وقال : « لاتدعني بما تدعوني به أُمي » ولو كانت هذه الحادثة
لصبي من اولاد الفقراء لعدت منه قحة وخروجاً عن حد الادب
والحياء ولكنها عن غنى كبير لذا هي موضع الاعجاب لان شخصه
موضع الابتهاال .

وقد يكون المملقون ضجرين وهم يسبحون بحمده ويتحملون
ضيمة وشره وهم ناقمون ساخطون . فاذا صنع بهم ماصنع وبلغ منهم
الغيظ ونال منهم الغضب وقام احدهم يشكوه الى نفسه او ينيبهم من
غفلتهم بعد طول خنوعهم رمي بالجنون . وعلى هذه القضية قضية
الخوف من التصريح بالحق لحفظ بعض المنافع الى حين او طمعاً في
مغنم ضئيل او تصديق لما يقول الغير واعتماداً على اوهامه الواهية بني
الناس بدعة الرأي العام فهم يقولون للرأي العام ارادة لاترد وقوة
لاتصد وبتش ليس له حد . ويقولون صوت الخلق صوت الحق

جمعية الاتحاد العربي
بيروت
BEYROUT, SYRIA

الليلة الخامسة

حديث الروح المجنون

دنا الروح الخائر من مضجعي وهزني فنهضت قال : « لقد
اكتشفت اليوم أمراً غريباً . ان بين الارواح ارواحاً مجنونة كما هي
الحال بين البشر » قلت : « كيف ذلك أليس الجنون عارضاً من
عوارض الحياة الارضية » قال : « كلا انه كذلك يعترى بعض
الارواح التائهة التي لم تستقر بعد على حال . فقد رأيت اليوم روحاً
مجنوناً يهيم على وجهه في الفضاء وهذا الروح المسكين لا يهدأ له خاطر
ولا يسكن الى مقر . فلما رأني قرب مني وقال لي : « انت الروح
الخائر العاقل وانا الروح الخائر المجنون قلت : « وكيف ذلك » .
قال : « اني طريد الارض والسما لانني قلت يوماً ما اعتقد »
قلت : « ماذا قلت » قال : « خلوت يوماً بصديق لي واسررت له
رأني » قلت : « ماهو هذا الرأي » قال : « اني سمعته يذكر
الاخلاق والآداب والفضائل وغير ذلك من الاحاديث المتفق
عليها » فقلت له : « آداب واخلاق وفضائل ! ألا تزال تعتقد بوجود
هذه الاحاديث اسمع اني اقول لك كلمة واحدة لم اقلها لاحد

سواك من قبل وفي هذه الكلمة السر الاكبر بل هي حل اللغز
الذي تقف امامه صاغراً حائراً .

ان كل ما ذكرت لك اكاذيب موهبة واذليل متفق عليها .

نعم اكاذيب موهبة واذليل متفق عليها . وبعبارة أخرى هي سيئة
من سيئات المكر البشري وحيلة من حيل الانسان اختلقها ليسود

على اخيه وليتحكم بها في عنقه أتعرف قصة السندباد البحري أتعرف

كيف انه لقي في احدى الجزر رجلاً عجيباً غرر به وخدعه حتى

تمكن منه وركب كتفيه وما زال ذلك الرجل يسخر السندباد ويحرمه

لذة القعود ولا يذيقه طعم الرقاد اذا غفا انهضه واذا توانى ركضه

حتى فطن السندباد الى حيلته وحاول الخلاص منه فلم يتأت له الا

بأن اسكره فلما لعبت الخمر برأس العلقة أخلى سبيل أسيره ولو لم

يفطن السندباد بقى طول عمره في أسره .

ان مثل الهيئة الاجتماعية في كل زمان ومكان كمثل السندباد

والمدعون انهم انصار الحق واعداء الباطل وابطال المواقع وحكماء

الامم واصحاب الملايين هم خلفاء ذلك الرجل العجيب الذي

ركب اكتاف السندباد المسكين . نحن يا صاحبي فريسة تلك

الوحوش المفترسة . نحن عبيدها وأسراها ونحن مصدر خيرها

و ثروتها نحن مصدر بطشها وقوتها . لا تدهش ولا تدعرو ! ان
كنت اكتفيت بقراءة الكتب وسرك مرأى الظواهر فانك
لا تستطيع معي صبراً . بل اضطر لان استميتك عذراً واقول
لك لقد اخطأت وسبقتي اللسان الى القول فلم افقه معنى ماقلت
وكفى . وان كنت قرأت الناس وعامت ماخفي من أمورهم
فانا اسألك أمراً واحداً ارجع بنفسك الى الماضي وسلها عن عاشرتهم
من اهلك واصحابك ورفقتك واصحابك وقل لي ايهم لم يسع الى غاية
تهمه وغرض يريد . بل ايهم بذل نفسه او ماله او شرفه لينتقد
غيره ما لم يكن له وراء ذلك البذل امل يود تحقيقه . بل ايهم ليس
له سر يكتمه وخبر يخفيه ايهم لم يخدع الناس ايهم لم يخدع نفسه
ايهم اذعن الى الحق الا مرغماً مضطراً ايهم لم يغير ما بنفسه
سراً وجهراً ايهم صدق في القول واخلص في العمل واعتقد
ولم يأكله الناس لحماقته وجهله . وأيهم لم ينجه الكذب من
اللوم ولم ينتقده الرياء من مخالف الفقر ايهم اشبع جائعاً الا
طمعاً في دار تجري من تحتها الانهار او خشية ان تلحقه الفاقة
في آخر النهار ايهم حقن دماً يرى في سفنكه خيراً له وايهم صان سراً
يجد في كتفه ضرراً او حرص على شرف امن في ثلمه اراقه الدماء
ان هناك لا ريب نقرأ قليلين تحاجني بهم وتستند في تنفيذ قولي

عليهم ولكن كل ما اقله عن هذا النفر هو انك لم تعرف دخائلهم
ولم تسعدك المصادفات برفع الستار عنها .

تقولون شرف وفضيلة . . فما هو ذلك الشرف سوى الالقاب
الفارغة وتلك المظاهر الباطلة ارأيت رجلا كاملا لا ينطق الا بيمين
ولا يفوه بفحش القول كأن على رأسه ملكين كريمين يكتبان ارأيته
كيف يأنف اذا اغتبت لديه عدوه اسمعته كيف يأبى عليك ان تمدحه
في وجهه ؟ انه يا صاحبي ممثل حاذق امكنه ان يستر حقيقة شخصه
بغشاء من الرياء والنفاق انه ادعى الفضيلة ولعمري ماوضع الواضعون
اسما بغير مسمى اغرب ولا اعجب من هذا الاسم فانه يتضمن كل
شيء ولا يدل على شيء وليس ذلك بعجيب ارأيت تلك الفتاة
التي احمر وجهها خجلا اذا نطقت امامها باسم الحب ارأيتها وهي
بين ذراعي حبيبها بعد ذلك ببرهة تبثه لواعج الشوق وتتلو عليه
آيات الغرام هذه يا صاحبي هي الفضيلة هذا هو الشرف لكن
كما يفسرهما الرجل العجيب الذي ركب كتفي السندباد لا كما
يفسرهما السندباد بذاته .

ولكن لماذا نلوم الناس ونعتب عليهم أليسوا بشراً اليسوا
قطيعاً من الحيوان كان يدب منذ مائة قرن في الادغال والاحراش

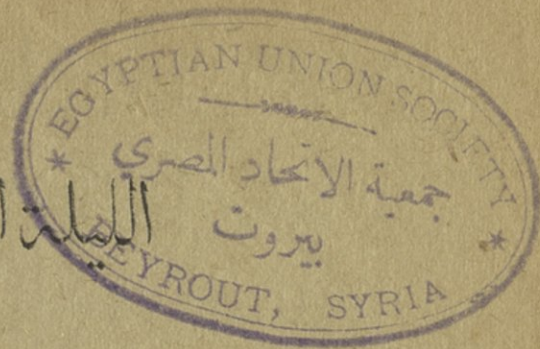
ولكن لماذا نتظاهر بما لا نبطن؟ نظام الهيئة الاجتماعية يقضي بذلك
وما هو نظام تلك الهيئات الاجتماعية سوى قواعد وضعها الانسان
للانسان وصيره بها اسيراً على مدى الدهر والازمان ضعيف الحول
والطول حقير الرأي والعقل. ان هذه الحيوانات المستترة وراء
الحلل الفاخرة والحلي الغالية سئمت ذلك الاستتار واصبحت تبجل
الصادق الامين والوفي الحر لان صاحب تلك الصفات نادر ندور
الكبريت الاحمر في ذلك العالم الطويل العريض. فلماذا لا نخلع
كلنا مرة واحدة رداء الرياء ونطلق النفاق طليقة بائنة وننسى الماضي
ونسير في طريقنا كما يسير اخواننا في الاجمات والغابات بلا كذب
ولا خداع ولا نميمة وبلا الالفاظ الخلابة الباطلة.

لا أريد ان اقلب نظام العالم او اعطل سير الفلك بل يخيل لي
ان الشيطان يخجل اذا ظننته ملكاً طاهراً فكيف لا يخجل نحن ممن
يجلنا ويعظمنا ويكرمنا ويسجد امامنا ويبدل نفسه مرضاة لنا اذا كان
لنا ضمير فتمى يوثبنا وان كان هناك جزاء فتمى يكون؟ واذا كانت
الانسانية تسير سيراً حثيثاً نحو الكمال فتمى يكون الوصول ان كانوا
صادقين وان كنا نسير سيراً سريعاً نحو الدمار فتمى يكون البلوغ
ان كنا بالغين !!! »

قال الروح الحائر فلما سمعت هذا القول : قلت له : « لا شك
انك ايها الروح مجنون . اتظن هذه الاقوال حقاً وهي عين الباطل .
فقهقه الروح المجنون وقال : « وانت كذلك لا تزال مخدوعاً
وسوف تفقه معنى هذا القول . واحسرتا . لقد التمست الانصار
في الارض فلم اجدهم وها انا التمسهم بين الارواح فيصفوني
بالجنون . ان جنوني خير من عقلكم وخيالي اصدق من حقائقكم .
فاعرضت عن الروح المجنون وجئت اليك انقل حديثه .

الليلة الخامسة
الصفحة الاولى
نصفها البسيفي يسجل على البسيفي ان كان
١٩





الليلة السادسة

نرجس العمياء

جاءني الروح الحائر باكيا . قلت : « ماذا يبكيك ياروح العزيز » قال : « تبكيني ذكرى مؤلمة » قلت : « وماهي » قال : « ذكرت اليوم اني خلفت على الارض نفساً زكية في جسم فتاة شقية . الا انها من بنات الجنة وهي لانزال على الارض بل اني التمس من يماثلها في السماء فلا اجد » .

قلت : « ومن هي هذه المخلوقة الانسية التي حوت تلك الصفات الروحانية » قال : « انها نرجس الضريرة عرفتھا ايام صباي في الحياة الارضية فاذا ذكرت السعادة وخلو البال وراحة القلب وفسحة الآمال على الارض ذكرت تلك الايام البعيدة السعيدة . تلك الايام البعيدة القريبة بعيدة لانني كلما نظرت ورأيت الى الحوادث والكوارث وغرائب الاقدار ومدهشات الليل والنهار رأيتها جميعاً كالجبل العالي يفصل بين واديين الوادي الاول هو وادي الماضي وفيه تذكارات الطفولة والوادي الثاني هو الذي اعاني الآن التيه في قفاره واحاول الخروج من آجابه وادغاله ولا ادري الى اين ولكن

إذا نسيت كل مصائبي وأسدت ستاراً على همومي واستسهلت
الصعب واستهنت بالاحزان مما مضى رأيت أيام الطفولة أقرب شيء
إلى قلبي فكأنني ابن الأمس وكأنني الساعة وأنا احادثك اعبت
برمل البحر وامتع ناظري بمنظر غروب الشمس او اشرف آذاني
بصوت المؤذن قبيل الفجر.

ليس ذلك كل ما اذكر من تلك الايام بل ان في قلبي صحفاً
منسية وكتباً مطوية لم يأن قبل الآن اوان نشرها وتلاوتها . بل
لا اكون مبالغاً إذا قلت ان في صدري عالماً صغيراً لا ينقصه شيء
مما في اكبر العوالم ففيه الفرح والحزن والضحك والبكاء والشجي
والطرب .

ومن اشخاص هذا العالم العجيب طفلة عمياء لا ازال اذكرها
وان انساها واسمها نرجس . وكانت تلك الفتاة يتيمة تعيش مع
جدة لها عجوز احنها الكبر واخني عليها الدهر ونال منها الفقر منالاً
تعيش مع تلك الابنة في غرفة صغيرة مظلمة ضيقة في بيت من
البيوت المجاورة لبيتنا . اما العجوز فكانت ذات شمم وغفة لانها
ابت احسان المحسنين وفضلت ان تبيع الحلوى للاطفال في الارقة
على ان تستجدي . وكانت من الرحمة بحفيدتها والاشفاق عليها

بحيث لا يهنأ لها بال ولا تستقر على حال مادامت نرجس تطلب
حاجة أو تشتهي شيئاً . ومن المناظر التي لاتزال في ذهني صورة
تلك العجوز الفاضلة تحمل حفيدتها على اكتافها والطفلة العمياء تنظر
الى العالم بعينين اخذ الله نورهما وعلى شفقتها المرجانيتين ابتسامه
كابتسامه الملائكة والمرأة تسير على مهل وهي لابسة ثياباً لاتدراً
برداً ولا تستر جسداً وبين يديها صندوق من الخشب فيه اصناف
شتى من الحلوى والألعاب الاطفال وهي تنادي الاطفال بصوتها
الضئيل الضعيف الخافت وتدعوهم الى شراء ما يبيدها . فتقف تارة
ويلحقها التعب فتجلس وكانت اذا جلست ضمت نرجساً الى صدرها
وقبلتها وكان تلك القبلة تذهب بما اصابها من التعب فتعود اليها
قوتها ويتجدد لها نشاطها .

اما نرجس فكانت طفلة في الخامسة من عمرها نحيفة البدن
جميلة الوجه وكان لها شعر يشبه المسجد في لونه وحسنه وكان ثوبها
على فقرها نظيفاً وكانت جدتها تتودد اليها فوكلت الي أمر تسريح
نرجس ريثما تشتري من السوق بضاعتها فلما دنوت من الطفلة
وكنت اشفق عليها من زمن طويل لاطفتها وداعبتها حتى اطمانت الي
ثم سرت بها فقالت لي همساً سر الهويناء والا اعثر بحجر فأسقط على

الارض لانني لا ابصر وتأوهت الفتاة فأثرت تلك الكلمة بنفسني
تأثيراً شديداً وسرت بها لا اتقل قدمي حتى تنقل قدمها ولا انظر
في طريقي الا لازيل ما في سبيلها من الاحجار الصغيرة ولو
استطعت حملها لحملتها ولكنني خشيت ان نسقط جميعاً وما زلت
سائراً بمرجس ويدها في يدي انظر الى السماء والى جبينها الواضح
وعينيها المغمضتين حتى بلغت بها شاطئ البحر فلما شعرت بمرجس
بالهواء قالت لي أين نحن فقلت لها نحن على شاطئ البحر قالت وهل
بلغنا الماء قلت لها كلا . قالت اجلس بنا هنا لانني اسمع صوتاً يخيفني
فقلت لها هذا صوت الامواج وهي بعيدة منا قالت لي وماهي الامواج
قلت لها انها قطع كبيرة من الماء تلم الشاطئ ثم تنكسر فقالت لي
وهل البحر كبير قلت لها نعم لا تصل عيني الى آخره قالت وهل ترى
السفن قلت نعم قالت وكيف هي قلت هي كالطيور البيضاء قالت لي
وكيف الطيور قلت لها للطيور اجنحة تطير بها في السماء قالت انك
ترى كل هذا وأنا لا ارى انني اشعر بالبرد فقلت لها اقربني مني
فقربت بمرجس مني ووضعت رأسها في حجري ووضعت يدي على
جبينها وبقيت هكذا زمناً طويلاً وهي لا تنبس بينت شفة وأنا أقلب
طرفي بين وجهها الهاديء وبين البحر الهائج ولست استطيع ان اصف
السعادة التي شعرت بها وتلك الطفلة الضريرة نائمة في حجري وكانت

نفسى تحدثني بأنه منهما طال رقاد نرجس وهي مستريحة فأنا لا أتعب
ولا أمل لانني أحسست بأن راحتي وسروري في راحة تلك الطفلة
اليتيمة العمياء وسرورها ولما اغرقت في النوم كنت أقبلها بحنو ورافة
ما شعرت بمثلهما نحو انسان طول حياتي . كان الرمل تحتنا والسماء فوقنا
والبحر أمامنا والنسيم العليل يهب علينا من الشمال وقد خيل لي انني
لا أطلب شيئاً بعد اليوم سوى نرجس تأتي معي الى شاطئ البحر
وترقد في حجري مطمئنة اليّ كأنتي شقيقها أو حبيبها منذ القدم .

لست أدري لماذا كنت اشعر بسرور عظيم لاستسلام تلك
الطفلة واطمئنانها اليّ فهل كان ذلك لان نفسها كانت تقاسم نفسي
بعض همومها وقد تدرك النفوس مالا تدرك الاجسام او لانني لم يكن
لي اخوة ولا اخوات فلم اسعد بعشرة الاطفال الا لتلك المرة . او
لان ارادة الرجل اقوى من ارادة المرأة وتظهر تلك القوة حتى في
الاطفال فيفرح الطفل اذا سكنت اليه طفلة مثله وارتاحت الي
عشرته .

كنت أشعر أن نرجساً صارت ملكي ومتاعي قلبها قلبي وجسمها
جسمي ووددت لو انها تستعوض بنظري عن نظرها فتري ما تروقي
روئيته وتمتع نفسها بمنظر البحر والسفن التي سألتني عنها ولم ادر كيف
أجيبها .

كنت اذهب في كل يوم لارى نرجساً واشتري لها ولي من
الخلوى التي تبليها جدتها . وكانت جدتها كلما أرادت ان تغيب عنها
تستودعني اياها . وكانت نرجس اذا سمعت صوتي زال السكون
من جبينها وعلت خديها الجميلين حمرة السرور وجاءت الي تجري
فاخذها بين يدي واسير بها الى شاطئ البحر ولما استأنست بي كانت
تطلب الي ان اقص عليها بعض القصص فكنت اتلوعليها ما يحضرنى
مما سمعته ولما علمت شغفها بتلك الاحاديث كنت اقصي شطراً
من الليل في اعداد القصص العجيبة لاعيدها على صديقتي الصغيرة
التي كانت تنتظرها بفارغ الصبر وكنت اذا انتهيت من قصة ابتسمت
وقبلتني ثم طالبتني بقصة اخرى وفي يوم من الايام خطر ببالي خاطر
عجيب وهو ان اسأل عجوزاً في بيتنا عن قصة فيها ذكر طفلة عمياء
فكدت قريحتها وروت لي حديثاً محزوناً فيه ذكر طفلة عمياء ولدتها
امها وتركتها يتيمه وحيدة فقاست الطفلة من الآلام والاحزان
ماقاست حتى كبرت ونمت وكانت تسير في الطرق وتغني بصوت
شجي فيجود عليها الناس بما تقوم به اودها وقد رآها ابن الملك من
نافذة قصره فحن الى صوتها واعجب بجمالها فدعاها الى القصر واسبع
عليها ذيول النعمة وتزوج منها (ماأسعد تلك الايام المطوية التي كان
فيها الملك يقرب السائلة من عرشه) وقبل ليلة زفافه بها جاء الى

القصر طيب هندي ينطق الالبكم ويسمع الاصم ويشفي الالكه
فطالب منه ابن الملك ان يشفي زوجته الجميلة فعالجها وشفاهها !

فلما سمعت تلك القصة قضيت ليلتي ونفسي تحدثني بان نرجساً
يتم لها ذلك في صباها وانها تشفى مما اصابها فتستطيع ان ترى ما يراه
المبصرون ولما كان الصباح أسرع الى بيت جدتها فلما سمعت نرجس
صوتي أسرع اليّ وطلبت ان اسير بها الى شاطئ البحر فاخذتها
وسرت بها حتى بلغنا مكاننا الذي اعتدنا الجلوس فيه فجلسنا قليلاً ثم
طلبت مني نرجس ان اقص عليها قصة فاندفعت كالسيل الجارف اروي
لها حديث السائلة الصريرة التي تزوج بها ابن الملك وشفاهها الهندي .

ولما كنت اصف ملاقته المسكينة من صنوف الشقاء وأنواع
المصائب والمتاعب انقبض صدرها وظهرت علام الحزن في وجهها
ولما بلغت اشد ما قاسته فتاة القصة من الاهوال قلت : وفي ليلة من
ليالي الشتاء دخلت السائلة مدينة كبيرة وفي يدها عكاز تقيس به خطاها
وتجس به اديم الارض وكان البرد قارساً والسماء تمطر والبرق يلمع
وكانت الفتاة لم تبلغ منذ يومين فجلست الى جدار وأخذت تبكي
وتندب حياتها وتستعطف الناس بصوت شجي ولكنها لم تنل ما تدفع
به ألم الجوع لانها كانت في طريق مهجورة لا يمر بها احد وهي تظن

ان الناس تمر بها ولا يشفقون عليها فاخذت تبكي بكاءً مرّاً وقضت
ليلتها في العراء على سغب ترتجف من البرد وتلتوي من الجوع.

فلما سمعت نرجس هذا الكلام بكت ووضعت يدها على فمي
وقالت : « لا تقل لا تقل » فقلت لها : « اسمعي فانها بعد ذلك
ناليت من نعيم السعادة ما انساها بلاء الشقاء فكفكفت نرجس
دمعها واصغت فاسترسلت في حديثي حتى اتممت شفاء الفتاة فابرت
امسة نرجس وقالت لي بصوت الحزين واين هذا الطيب الهندي
الذي شفاها وانا زلّمة عينها فقلت لها است ادرى يا نرجس قالت :
« ولو علمت مكانه هل تاخذني اليه ؟ قلت : « نعم فقبلتني في اذني
لانها لم تر مكان القبلة من الوجه .

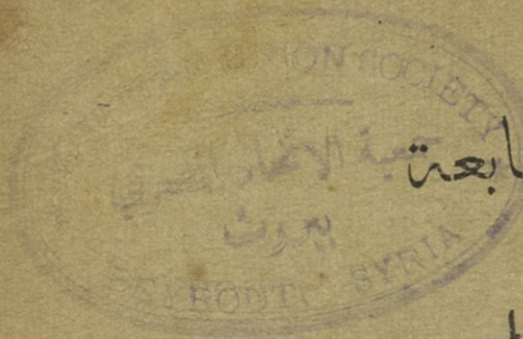
*
*
*

ودامت صداقتنا حتى فرق الدهر بيننا فانتقل من كان يعواني
وانتقلت معه من ذلك الحي وودعت شاطيء البحر وصوت المؤذن
وودعت نرجساً وجدتها ، وودعت تلك السويعات السعيدة
التي كنت اقضيها مع شقيقة روعي على الرمال الصفراء اقص عليها
الاحاديث العجيبة وامتع نفسي بقر بها . وودعت تلك الروح الطاهرة
وذلك القلب الحزين وودعت طفلة بائسة لم تجن ذنباً ولم تقترف اثماً

ولدتها امها عمياء ومات ابوها وتركها لعجوز فقيرة لا تستطيع ان
تعول نفسها . قال الروح الحائر :

هذه صحيفة من الصحف المطوية حفظها الفؤاد في ثناياها
وطواها القلب فيما طوى من الصحف التي تعيد اليّ تلاوتها ذكرى
سعادة الطفولة وشتائها قلت : « وما الذي هاج الذكرى » قال :
« مررت اليوم في طريقي اليك بمجر كبير تمر به السابلة والعجلات
وكان البرد قارساً فاذا بي اسمع صوت امرأة ترتل القرآن فدنوت
من مصدر الصوت فاذا بي ارى امرأة في ثياب رثة قد اقتربت الثرى
وبجانها طفلان فبينت وجهها فاذا هي نرجس ولم استطع ان انقذها
من وهدة الفاقة بعد ان تجردت من المادة . فقم لساعتك وانقذ من
الفقر تلك النفس الشقيقة الشقية » .

الليبية
سادة الاحرار
عصافه امراء
على شام
انفس الامراء
الليبية
٥٠



الليلة السابعة

صديقي علي

زارني الروح الحائر قال : « هل رأيت نرجساً » قلت :
« نعم رأيتها » .

قال : « اني اليوم حزين بقدر حزني امس . »
قلت : « هذا يسوءني وماذا حدث فزاد غمك » قال : « لقيت
اليوم روح صديق قديم » . قلت : « من هو » قال : « روح علي »
قلت : « ومن هو علي » : قال انه صديق عرفته في ايام الصبي ايام
كنت امرح في نعيم الفتوة واسرح في واد من الهناء . في تلك الايام
التي بدد الدهر اوصالها اذ كان كل كوكب في نظري قرآً وكل زهرة
وردة وكل مسرة سعادة لا تنتهي وكل كلمة قيلت همساً سرّاً لا ينسى
وكل بسمة دليل اخلاص ابدى

هذه أيام الصبي التي ذهبت غني وولت كما ذهبت عن غيري من
الأوائل والأواخر فبكتها القلوب والنواظر ورثاها كل كاتب وشاعر
واستعادها كل شيخ هم ولكن قلب الشباب قاس اضم فلا يرق

لحال شك ولا يسمع صوت باك . لا أبكي الشباب على الأرض ولا
استعيده فقد كانت همومه عندي اعظم من مسراته وحسناته أقل من
سيئاته . ولو لم يكن في الشباب من عيب سوى حماقته وجهله لاستعدت
منه بالشيخوخة والهزم .

ولكن كان لدي اسطر في قرطاس كلما قلبت فيها اجفاني جادت
عيوني باللؤلؤ الرطب على صديق عرفته في الصبا ذبلت زهرته وذوت
نضرتة قبل ان اعرفه حق المعرفة . مات هذا الصديق قبل ان ادرك
معنى الصداقة وقبل ان افقه معنى الاخلاص فلما شببت وادركت معناهما
بكيتته ولا ازال ابكيه وقلت لو اختار الاخلاص والصداقة شخصاً
يسكنان قلبه كان صاحبي ذلك الشخص .

كان صاحبي هذا عبداً اسود واقول عبداً مفاخرًا لانني وجدت
فيه حراً رفيع النفس عالي الهمة ويا حبذا لو كان في الاحرار له مثل
كان لهذا العبد سيد ونعم العبد وبش السيد واضنه كان طيباً
اتي بتلك الجوهرة السوداء من بلد باقوى النوبة معظم اهله من العرب
روى لي صاحبي ان اياه واهله يملكون سفناً ولهم تجارة
حسنة وان الطيب خدعه وسلب لبه وحسن في نظره عيش المدنية
وكان قلبه اذ ذاك قلب قتي لا يفرق بين الحق والباطل ولا يميز

بين الصدق والكذب فبهره حسن قول الطيب وفر معه فراراً رغم
انف اهله وكانا في سفينة من سفن الجيش فعجزوا عن رده .

سافر علي مع هذا الطيب وهو لم يبلغ حد الفتوة ولكن جوانحه
كانت تضم نفساً كبيرة وقلباً كريماً وقد خاناه وغدرا به ولم يحدثاه بما
سوف يلتقى من صنوف الشقاء وانواع العذاب الاليم .

روى علي قال : فلما بلغنا مصر عني الطيب بتهديني وتعليمي
لما رآه في من الاقبال على العلم والتفاني في طلبه وتركني اسرح مع
اطفاله وعدني منهم . وكانت له زوجة كريمة ترق لحالي وترأف بي .
فاحببتها واتخذتها بديلة عن امي وأهلي وتسليت عن اخوتي بابناء
الطيب ولكنني ما اوشكت ان ابغ مبلغ الصبي حتى تنير الطيب
علي وكنت اذ ذاك اعمل معه في فن الكيمياء واعاونه في عمله . فلم
يكن لي هم الا تحليل العناصر وتجهيز انواع الدواء وعمل التجارب
العلمية التي هدتني اليها كتب علم الطبيعة . وكنت كلما تقدم سني عاماً
ازددت غمماً وهماً لسبيين الاول اني كنت ارى نفسي في موضع
لا يليق بها والثاني لما طرأ علي من ضعف البدن عقيب تغيير الطقس
والمناخ . ولكنني كنت اجاهد جهدي واكافح ذينك السبيين وأقضي
وقتي في تعلم ما أهمل الطيب تعليمي اياه . حتى بلغت من الطب

والكيميااء درجة ارتحت اليها ورضيت بها . وعند ذلك شعرت بقليل
من راحة القلب . لان مكاني في بيت الطيب كان مبهماً غامضاً
فلا انا فرد من افراد الاسرة التجيء اليها اذا أرغمتني الايام ولا انا عبد
اباع واشرى كما تباع الانعام ولا انا حر مطلق افعل ما أريد كغيري
من الناس . سيما وقد نهاني الطيب عشرة بنت له كانت يافعة وقد
قطعنا امد الطفولة معاً ودخلنا باب الصبي جنباً الى جنب وخرجنا من
الصبي هي الى الشباب وانا الى الرجولة . فحجبها الطيب ونهاني عن
عشرتها فانهيت . واذ كر اليوم الذي دعاني فيه الطيب اليه وقال
لي يا علي آن لزيدة ان تحتجب وأن لنا ان ننظر في أمر تزويجها بمن
هو كفوء لها فلا يجوز لك منذ اليوم ان تراها او تعاشرها . فاجبته
بالرضى ونفسي تكاد تحترق وقلبي يوشك ان يمزق .

في هذا اليوم حصحص الحق وزهق الباطل وعلمت اني عبد وان
زيدة حرة واني لست كفوءاً لها .

فلما بلغت غايتي من الطب والكيميااء شعرت بنسيم الحرية وقلت
في نفسي لو لم الق من الطيب ما اود تركته والتمست الرزق من
مورد غير مورده . وهكذا اثر العلم يجعل العبد حراً .

وكننت اقضي زماني في قراءة الكتب ودرسها والتفكك بمطالعة

قصص شتى • واجد لذة كبرى في معالجة المرضى وتخفيف آلام
الحزاني والمساكين وكان لي في ذلك عزاء وسأوى ولكن قلبي لم
يكن يستقر على حال ونفسي كأنها في وادي التيه هائمة •

وكلما كبرت سنة شعرت بمطالب وحاجات لم اكن اطلبها ولكن
الطبيب كان كذلك يقسو قلبه شيئاً فشيئاً ويشتد بأسه عليّ يوماً فيوماً
فاذا اشتت نفسي امرأً جديداً حاربت الطبيب فيه فاذا انتصرت
عليه نلته بشق الانفس والا بقيت بدونه فكأنني اكسب حررتي
واستعيد حقوق المسلوبة شبرا شبرا •

وجاء يوم كان الناس فيه في عيد لهم وليس لديّ ما يسترني في
اعينهم وكان المتدبر من المال الذي اتقاضاه لا يسد رمقاً ولا يستر
بدناً فالتست منه زيادة في الاجر وجزاءً على العمل فخرج معي عن
حده وعزّ عليه ان يطلب مسلوب حقاً وقال لي : ان حياتي دين له عليّ
فبنت من سوء فعله وقلت له تلك العهود كيف تنساها وتلك المواثيق
كيف تخونها الست انت الذي خطفتني من أهلي الست انت الذي
جئت بي من وطني الست انت سالب حررتي الست انت مسبب
هواني ومداتي الست انت الذي استعبدتني وكنت حراً الست انت
الذي حرمتني من أهلي ووطني • ثم عرتني نوبة عمه بيه فغاب صوابي

وفقدت رشدي • ولما افقت من غشيتي ونظرت في نفسي صحت
عزيمتي على التحول عن مكان الذل فتحولت عنه • وذهبت اضرب في
البلد طولا وعرضاً حتى هداني الله الى طيب آخر ارتضاني معيناً
له على عمله •

ولكن صاحبي لامي وعتب عليّ واستغفر من ذنبه ثم استعان
باصحابي واخواني فقبلت العودة اليه شريطة أن انال ما طلبت فوعدني
وعداً مصرياً .

قال الروح الحائر : عرفت صاحبي فوجدت منه ادباً عجيباً دل على
طيب منبته وميلاً للعلم ورأفة بالضعاف واشفاقاً على المساكين وكان
حسن العشرة لطيف الكلام ذكي الفؤاد لم اسمعه ينطق بقول منفر
وكنت اجلس اليه تقضي اويقات الفراغ في الحديث العذب وقراءة
الكتب ومقارنة الافكار والخواطر وكان كذلك ممكن سري وموضع
ثقتي واخلاصي وكان يقص عليّ ما حدث له مع اصدقائه من صنوف
الوفاء والمحبة وما كان يلقاه من بعضهم من الضر والخديعة وكان يبوح
لي بحبه لزيدة وكانت تزوجت فيقول لي : كنت احبها وانا قتي لا
اعرف الحب فكانت اذا انصرفت الى أمها بعد اللهو واللعب اقبل
مواضع اقدمها من الارض واطع اذني على جدار حجرتها اسمع انفاسها

وهي تتردد في سواد الليل البهيم فيدق قلبي كلما تنفست حتى اذا
تنفس الصبح نهضت وأعدنا ما كان بالامس من سرور الطفولة وسعادتها.
ولما تزوجت كان زوجها يأتي اليّ وهو يجهل ما بقلبي منها ويقص عليّ
اخبارها وما يشعر به نحوها وهو يظن اني جماد لا احس واذا
أحسست لا افهم واذا فهمت لا اجسر على الكلام . وقد صبرت
في تلك الايام صبراً يدك الجبال ولكن ليس بعجيب ممن اعتاد
الاسر والذل في سائر صنوف العيش ان يحتملها في الحب الطاهر .
قال الروح الحائر : وقد دامت صداقتنا نيفا وثلاث سنين ثم انتقلت
من البلد الذي كنا فيه الى آخر لطلب العلم وكنت اعود اليه
في المواسم والاعياد فكان عيدي لقاء علي ولا عيد لديّ سواه
فأسرع اليه وأقص عليه أخباري ويقص عليّ اخباره واعطيه ما
قرأت من الكتب ويعطيني ما قرأ . ونعوض مافاتنا في ايام البعد
بمواصلة اوقات الصفاء على ضفة نهر او في حقل من الحقول نطالع
كتاباً او نتحدث في شأن من الشؤون . وفي عيد من الاعياد عدت
الى ذلك البلد واسرعت كعادتي الى علي فلم اجده في مكانه فسألت
عنه من يعرف اخباره فقال لي انه ذهب ويعود ثم قال لي انه مريض
فظننت انه يشكو داء يزول . واني لكذلك ارقبه واذا بي ارى
شبحاً قادمًا لا يرى منه الرائي الا عيني براقتين وعظاماً مغطاة بجلد

اسود . وكان الطقس حاراً ولكن الشبح يتقي البرد بغطاء من الصوف
على كتفه وصدره فتبينت القادم فاذا هو علي فوجمت لاول وهلة
ولكنني خشيت ان يهوله امري فيحزن ولكنني لما دناني لم اتمالك
نفسي فاجهشت في البكاء فلما رأني كذلك ابتسم واغرورت عيناه
بالدموع في لحظة فكان يضحك ويلاطفني تارة ويكفكف دمه
تارة اخرى .

وجلسنا ضامتين لا نطق . وما زلنا كذلك حتى فك هو طلسم
السكوت بقوله : كيف حالك اني اسأل عنك ولكنني لا استطيع
ان اكتب لك . وكان في كل كلمة يسعل مرة وفي كل مرة
كأنه يقطع نياط قلبه ونظرت في عينيه فاذا هما لا تستقر ان علي
حال من القلق كأنهما ركبتا على زئبق فقلت له : اعل ضعفك يا صديقي
يزول قريباً فقال باسم هيهات ان يزول الداء قبل زوالي . فقلت
خفف عليك ولا تكن جزوعاً ما هذا الا ضعف ينقضي امده

قال : تريد تخدعني كما يخدعني الاطباء . وكما اخدع نفسي .
هذا سل يخترمني فاذا مت فاطلب لي من الله الرحمة . قال هذا
بثبات جأش وسكون . وحاولت تخفيف مصابه فلم استطع . فصرنا
نبكي ولا يجف الدمع . ولما اقترقنا ابى ان يعطيني يده وقال اني اخشى

عليك العدوى وصممت ان اصافحه واقسم ان لا ابرح المكان
الا بعد ان اظهر كفي .



كنت ازور علياً في مرضه في كل يوم مرة ولا حديث له الا
ذكرى اهدى وندمه على ما مضى منه في غروره وطيشه اذا طاع صاحبه
وخلى بلاده ويود لو يستطيع فيعود الى وطنه . وكان يرثى نفسه
بايات نظما وينشدها بصوت اجش يقطعه عليه السعال والبكاء .

ثم جاء موعد سفري فلم القه خشية ازدياد حزنه لان نفسي
كانت تحدثني بان لقاءنا سيكون آخر لقاء . وعدت بعد ذلك
باسبوعين وسأت عن صاحبي فقيل لي سافر فقلت والى اين فقال
مخبري انه في بلد بعيد . قلت واي بلد لعلي ازوره فيه قال : اتريد
ان تتف على الحقيقة قلت بلى انه مات فقال : نعم .

فبكيت حتى ابكيت مخبري وقلت هات حدثني كيف مات فقال
والبكاء يقطع حبل الكلام : —

بعد ان سافرت بثلاثة ايام ظهرت عليه علام الصحة والقوة .
واراد ان يقضى ليلة في بيت الطيب كعادته القديمة ولكن الطيب
كان حرم عليه دخول داره خشية العدوى منذ اشتدت عليه وطأة الداء

فكان ينام تارة في خان واخرى في غرفة حقيرة استأجرها في اقصى
البلد . ولما احس بالصحة والقوة قصد دار الطيب وقرع الباب ففتح
له فلما رآه الطيب قال له ما الذي جاء بك الى هنا وانت مريض بداء
معد تريد ان يصاب اولادي بما انت مصاب به فقال له وهو تخنقه
العبرات : انا قوي صحيح البدن . فقال الطيب انك في منتهى الدور
الثالث من ادوار السل السريع فاخرج من بيتي . فقال له علي : ايها
الرجل الظالم القاسي ردّ اليّ حياتي فقد سلبتها مني وهجم على الطيب
فصرخ الجبان وقال أنت مجنون . ولكن علياً خاتمه قدماه فسقط على
الارض فشح رأسه وطفح دماً ولم يقم من رقدته ولكنه كان لا يزال
حيّاً وكان خدم الطيب قد اسعفوه فامرهم سيدهم بحمل الميت الحي
فحملوه وقال اخرجوا به لوقتكم فخرجوا به وكان بجانب دار الطيب
بيت انتقضت جدرانه وتهدم بنيانه فوضعه فيه . واخذ الطيب في
تطهير ثيابه وارض داره من دمائه تلك الفريسة الانسانية . واوعز
الى رجال الحرس بنقل الميت الحي الى غير هذا المكان ولكن لم
يوشكوا ان يبلغوا المكان حتى كان علي جثة خامة

*
*
*

هذه ذكرى ذلك الصديق الذي باع حرّيته ووطنه بثمن
بمخس فشراه الموت كذلك «

قلت وكيف رأيت صديقك اليوم .

قال رأيت روحه كما كنت أراه في الايام الاولى ورأيته يصحب
روحاً جميلاً فلما تعارفنا تواري الروح الجميل قليلاً فقال أتعرف روح
من هذا قلت كلا قال انه روح زبيدة خرجت من العالم الارضي
بعد ان خرجت وكنت اتطلب لقاءها فالتقينا . ومر بنا روح ذو
لون أغبر يسوقه جني في يده سوط فارتجف روح علي وقال : هذه
هي روح والد زبيدة .

وقد لحقتني غشية لدى هذا الحديث فلما أفتت كان الروح
الخائر قد انصرف .

بإله ال
في يدهي احده يسمع
الناس تشهد بعض الناس
طما



الليلة الثامنة

الحزن الانساني

احاط بي اليأس يوماً فاستنجدت بالروح الحائر فلما أجاب ندائي
قلت : « ايها الروح الحائر اتني من الحزن في سجن ضيق • فهل
لديك الى الرجاء سبيل » قال : « خفف عنك ان الحزن من
حاجات الحياة الفانية • وأغلب من ترى من الناس يأسون انما يظهرون
القوة ويتعلقون باهداب الرجاء ويخلقون لذلك الفاظاً عذبة • كيف
لا ييأسون وهم لا يدرون من اين اتوا ولا الى اين يذهبون وهم
يشعرون في كل خطوة من خطواتهم انهم مسيرون • على اني منذ
تركت الارض تركت معها اليأس ولكن قد قضيت اياماً لا أزال
اذكرها لانها ما كان أقساها . قلت حدثني عن تلك الايام لعل بينها
وين ايامي شبيهاً . قال :

« كنت في تلك الايام في حال يرثى لها الصفا الصلد • لا اعني
على شيء ولا ألوي على احد • كنت حزين القلب مشنت اللب
اذا خلوت بنفسي حدثتني بالويل والثبور فيحيط بي اليأس ويحتويني
القنوط ويتمكن مني الوجل مما يأتي به الغد واذا جلست الى الناس كنت

عنهم في شغل شاغل يقولون ولا اسمع ويسمعون ولا أقول فاذا
نبهني احد جلاسي الى ما يبدو على وجهي من الالم والحزن اختلقت
له عذراً واستجمعت حواسي فراراً من سؤال غيره ولكن عبثاً تحاول
الشكلى ان تضحك وهيهات ان يفرح المحزون

كنت انظر حولي فاذا كل ما كان بالامس يفرحني ويضحكني
هو اليوم يحزني ويبيكني • كنت قبل اليوم ارى الحديقة ذات
الازهار والانهار والسماء ذات الشمس والاقمار والاحراش ذات
البابل والاطيار فتسر ناظري رؤيتها واشعر بلذة الحياة وأومن
بالله واحمده على نعمه ويجري في عروقي تيار الصفاء فاهش وابش
لكل من يلقاني لعلمى انه من بعض الآنام على اني لم أكن في
ذلك العهد غنياً او ذا مال يقوم بما اطلب وكذلك لم اكن اقيم في
قصر مشيد ولم يكن لي من يخفف من همي ولا كنتني رغم ذلك كله
كنت شبيهاً بالسعداء .

كنت في بعض الاحيان اشعر بانقباض في النفس وضيق في
الصدر وكثيراً ما اذرفت دموعاً بلا علة معلومة ولكن هذه الحال لم
تكن تدوم اكثر من يومين او ثلاثة ثم أعود الى حالى الاولى • اما
الايام التي ذكرتها لك فكانت كلها كآبة وافكاري كلها سوداء

وايس في قلبي مكان يدخل منه رسول الفرح • اقلب اجفاني في
ما حولي فاذا كل انسان وكل شيء لا يروقي فلا يضحكني المهذار
بهزله ولا يفرحني الجدلان بجذله ولا يبكييني العاشق بشعره وغزله ولا
يدهشني الغني بماله ولا يحزني الشقي بسواد حاله لقد استوى لدي الماء
والخشب والراحة والتعب والفاقة والنشب!

هوؤلاء اصحابي الذين كنت اسعد بعشرتهم يمرون بي ويجلسون
حولي ولكنني لا ارى فيهم ما كنت اراه فيما مضى. لا اظن ان امرأ
كان ينقصني لانني كنت العب بالذهب ولا ارى في ذلك مسرتي
هل ينقصني صديق وكل هوؤلاء اصدقاء هل ينقصني المجد وهو هباء
هل تنقصني اسرة وهيات ان تعادل حسناتها سيئاتها لا ينقصني
شيء ولكنني اطلب كل شيء!

ارى كل شيء في العالم غامضاً ولكن نفسي تحدثني ان لا غموض
ولا ابهام. ان الاغرار والمجانين ومن يتبعهم من وحوش الانسانية
يقولون عن يشر فون الانسانية بحرهم ضعفاء الاعصاب يشكون امراض
المعدة والامعاء ويحتاجون الى الرياضة البدنية والهواء النقي. وكنت اخذع
بقولهم قبل اليوم ولكنني علمت منذ عهد قريب ان هذا القول الهراء
ليس الا دفاعاً عن مبدأهم الفاسد مبدأ عبادة المادة واحتقار الروح.

لقد عاشرت كثيرين من هؤلاء الاقوياء الاعصاب الذين لا
يشكون امراض المعدة والامعاء وخبرت شأنهم وسبرت غورهم فاذا
احدهم يبذل النفس والنفيس في سبيل المال ولا يصون ما يسميه شرفاً
في الحصول على الاصفر الرنان لاعتقاده انه مفتاح كل باب ومفرج
كل كرب وفارس كل ميدان . رأيتهم لا يعرفون من مذهب ابيقور
الا النهمه والشره ولا يشغلون انفسهم الا بما يلمسونه لمساً ويعتقدون
بوجوده معنى وحساً وغني عن البيان ان امثال هؤلاء الوحوش يتخذون
كل وسيلة في الوصول الى غايتهم مادامت الغاية شريفة — كما يقولون
وانهم يقولون ما لا يعتقدون — هؤلاء الوحوش وقد سميتهم خنازير
البشر لا يروقون في نظري ولا يقنعني قولهم . ولا يفيدني علمهم .

انتي اذ كر يوماً من أيام اليأس شعرت منه بالالم ألم الضعف
ألم المرض والموت . فحفف هذا الشعور سائر الآلام . ان الآلام التي
كنت اشعر بها كلها آلام النفس والعقل آلام روح حائر لا يستطيع
ان يستقر على حال . آلام قلب مشتعل بنار تأكل بعضها لانها لم
تجد ما تأكله .

ارادت الطبيعة ان تخفف غني فزادني المأ على الآلام ولكنها لم
الاخير . ان حياتي حلقة احزان اشعر بها ولا يشعر بها غيري . ارى
الآن ان ألم الجسم عندي لذة النفس كما كنت فيما مضى ارى ان في

اجهاد الجسد راحة للروح والعقل . عن قريب تدق ساعة حياتي
دقتها الاخيرة ويسدل الموت بيني وبين هذا العالم حجاباً كثيفاً
لا يخترقه نظر الاحياء من اصدقاء واعداء . عن قريب يعود التراب
الى التراب وترجع النار الى النار . عن قريب تصير الظلمة نوراً
والتعب راحة والألم لذة والوجود الفاني عدماً عن قريب تغرب شمسي
ويشق لي في جوف الارض مضجع ارقد فيه رقدة لا قيام بعدها .
ولكن الشمس سوف تشرق من الشرق وتغرب في الغرب وتملأ
العالم بالنور والحرارة والافلاك سوف تدور دورتها والارض سوف
تخرج نباتها والناس يبقون كما تركتهم وهم بين لاه عن مياعده مترقب
له خائفاً وجللاً ومتألماً ضجر يستقدم ساعته وهي لا تأتي فلا الشمس وقفت
في سيرها ولا الافلاك عطلت عن دورانها ولا الارض ضنت بنبتها
ولا الناس حزنت لفراق من كان بالامس بينهم يسعى .

كنت كلما استعيد ذكرى الماضي تسود الدنيا في وجهي وتدنرني
الهموم بثوب من الحزن لا ندماً على ذنب جنيته ولا خوفاً من الموت
القادم ولكن غيظاً من عجزني عن حل الغاز هذا الوجود !

انتي انسان ولكنني لست كغيري من الناس انا تستفزني كلمة
وتخدعني اشارة اخلاص ويفتني منظر جميل ويحزنني بكاء فقير او أنين

عليه . اذا شكالي حزين ناصفته قلبي واذا صفا لي صديق وهبته
لي اذا سمعت عن شعب ذليل او امة اسيرة وددت لو اتني من
ابنائها فاقدم حياتي ضحية لها فكيف بي وانا ارى ما اري اريد ان اعلم
كل شيء ولا اقدر ان اقنع بالقليل اني استهين بكل عمل اتركه
ورائي فكيف بي اذا مت وانا لم اترك عملا يعيد شباب الوطن ويعلي
قدر الانسانية !

تقول عواطفى « الحياة لا شيء » فيقول عقلي « ولسكنها كل شيء »
تقول عواطفى « ماذا يجدى قطع ميل في طريق لا حد لغايته ولا بدء
لنهايته » فيقول عقلي « ان قطع ميل افضل من قطع الامل » تقول عواطفى
« ما غاية المجد الفارغ اذا كان مصير صاحبه الى الفناء الذي لا وجود
بعده » فيقول العقل « قد يكون مجد رجل نبراسا يضىء محجة امة ويكون
فوز امة فوزا للانسانية باسرها وقد لا يعرف المرء قدر عمله
تقول عواطفى « الموت خير من الحياة في عالم يعيش فيه النبيل العظيم
محمودا مكروها محترقا غريبا في اهله اجنبيا في وطنه يخلص له الناس
ليخدعوه ويمدحونه ليدبحوه ويرفعونه ليخفضوه ويعظمونه ليستصغروه »
فيقول العقل « صه ! فما انت يا نفسي اول من عاش ومات ولم يعرف قدره
ولا انت باول زهرة ضاع اريجها هباء ولا باول شعلة تبدد ضوءها عتيا »
طال امر هذا العراك بين القلب والعقل . وهبهات ان تنفق التقيضان او تتحد
الضدان . الموت مرقد الالام هو وحده يحكم بين الاثنين القلب والعواطف

كنت بالامس اريد ان يحزن لي كل من عرفني واليوم تمنيت لو لم
يعرفني احد بالامس كنت خاملا اريد الشهرة واليوم اراني شهيراً اريد
الجنون بالامس كنت اندب قلة اصحابي واليوم اندب كثرة الخلان
بالامس كنت اود لو تطول ايام الحياة واليوم يحزني ان تطول .
بالامس كنت في عين نفسي كل شيء واليوم اصبحت لاشيء لقد
ذقت سائر صنوف الالام فوجدت اشدها على النفس واقساها الم لا
يذوقه كثيرون ومن يذوقه مرة لا يعيش ليدوقه اخرى وهذا هو
ضيعة آمال الفرد او الجماعة واختفاءها عن عين الفكر اختفاء السراب
عن النظر بعد تمكن الظلم من الناظر . آمال سنين تهدم في طرفة عين
وآمال طرفة عين لا تحقق في سنين !

هذه صورة من فكري وانا على حافة القبر فلتكن عبرة من
العبر ولكن هيات ان يكون في الناس من يعتبر !
ثم سكت الروح الحائر وصاح ديك موءذن بالفجر . فقلت ايه
لك أيها الروح لقد هدمت ما بناه الأوائل والأواخر وهزأت بالصغائر
والكبائر . لقد أغرقت البشر في بحر من الحزن والقنوط وتركتم
من الحسرة واليأس في محيط زاخر .

قال : « اسمع اني الآن خرجت من ارضكم بعد ان خبرت
امرها فلما تجردت عن المادة فطنت الى سرها . ان الحزن معدنكم

وقد عجنت الارباب الانسانية بامواها اليأس ثم أخذتها سنة فاختمت آله
الحب غفوتها ووضع في العجين خميرة الامل فملئتم به ثم خبزتم في آتون
الشقاء وخرجتم كالاً رغبة كل رغبة لقمة لآكل . انكم ابنا الندامة
تمرحون لحظة في بساتين الرجاء . وقصة آدم من الاساطير الاولى
اخالدة لان لكل منكم تفاحة وثعبانا . انتم أيها الناس قطع الشطرنج
والقضاء والقدر لاعبان . انتم أيها الناس صور تحرككم بيد الدهر
في ملعب الوجود الحقير . والصوت المسموع فيكم هو صوت الحزن
الدائم والعويل . اتخذتم الضحك وهو شكل من اشكال البكاء
رقصتم لتخدروا ابدانكم بخمر الحركات لتغيب عنكم الاحزان سكرتم
اتقتلوا الهموم لهوتم لان اللهو ملجأ الضعفاء كلكم ذليل واعزكم اذلكم
حتى الملوك على عروشهم وارباب اولمبية لها يوم تنوح فيه . ألم تسمعوا
صوت سوفوكليس المجيد وهو عينكم الباكية وصوتكم الناعب ولسانكم
الصائح . كالكم « الملك أديب » لان كلكم هدف لسهام الزمان
كلكم يتصدكم القضاء ليقضي عليكم اذا آن الآوان ان الطبيعة التي
تدعونها جهلاً وتعليقاً امكم الحنون تحتقركم وتزدريكم وتبعث اليكم
بوحوشها واوبأها واعصارها . البحار تلتهمكم والنيران تأكلكم
والشهوات تغري نفوسكم وتفتي ابدانكم . فلاسقتكم اقلكم هم يختفون
وراء الالفاظ التي لا يفهمون معناها ويسخرون منكم كلما ابهموا

في الآراء. نظاماتكم الأرضية الموضوعة فاسدة وقوانينكم وضعها المتفعون
بها وانتم كقطع من الغنم يهش عليه الراعي بعصاه. يا حمتي! ياطأعين
طاعة عمياء! أيها العمي انكم لا تبصرون هكذا كان اجدادكم
وهكذا انتم وهكذا يكون بعدكم الاحفاد اين سقراط صاحب العقل
الاول رسول الانبياء وشيخ الحكماء لقد جر عتموه كأس السم
وانتم جاهلون وعيسى صلبتموه وقتلتم عن محمد انه مجنون. جاءكم
الاسكندر وقيصر فجدوا شعوبكم بالسياط وجرّوا ملوك الشرق والغرب
من أرجلهم ثم جاء الملوك فاخرجوا الارباب من اماكنها المقدسة وتمسكوا
امامكم بحقوق قالوا انها من الله. اعدلکم في كل مكان معنی والفضيلة
في كل بلد بيان. لقد طمستم وجه الحقيقة ولما تعرفوها. اسماكم فكراً
كطفل على شاطئ بحر الحقيقة يلتقط الاصداف ويغيب عنه الدر
والجمان. سألتني عن حالكم فهذه حالكم يا بني الانسان «

قلت: « كفى كفى ايها الروح الخائر! ليس بعد هذا القول مجال.

وانتم ايها الارواح ماذا علمتم وماذا اوجدتم وراء الطبيعة وهل

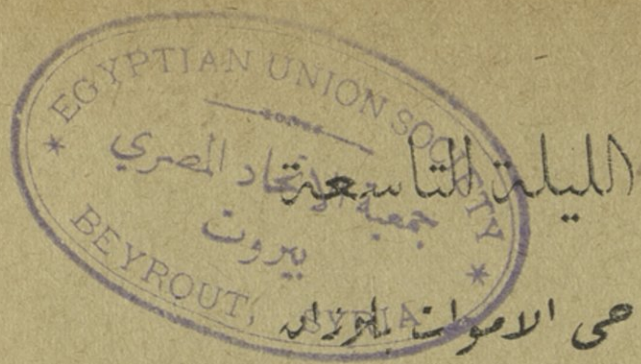
حلتم لغز الوجود؟ »

فقال « اسمع كلمتي الاخيرة قبل وضوح الفجر: اتني ابقى القول

الى المستقبل وكفالك حديث الليلة في عالمكم ريثما تتأهب للوقوف

على سر الوجود انه يأتي الينا بمقدار! »

الليلة الثامنة
العام عمود بالمرن وانسان
لا يفتقرون شيئا من هذا
اللو بور



زارني الروح الخائر فلما هدأ روعي بعيد رؤيته قال : « اني
قادم من مكان بعيد » قلت : « من اين » قال : « تاقت نفسي
لرؤية المقابر فلم اشته رؤية مقابرهم فذهبت الى بلد جميل فيه قبور
ان لم تحب بحسنها الموت للقادمين عليه فهي لا تنفرهم من مضاجعهم
الابدية وطففت بها وذكرت يوماً من أيامي على الارض اذ كنت
أطوف بمقبرة اخرى تشبه هذه في الحزن فقد جالت في نفسي افكار
شتى . وكسبت من اللحود عظام عظي » قلت : « حدثني ايها
الروح بحديث المقابر » قال : « كنت يوماً في بلد من بلاد الغرب
فخرجت التمس فرجاً من ضيق عراني وسرت على غير هدى
ولست ادري كيف وجدت نفسي في طريق مهجورة لا يرى
فيها عابر السبيل عابراً سواه الا كما يرى الضال في الفلاة ضالاً مثله
غير اني كنت استخرت النظر في اختيارها ولما كان بين العين
والنفس رابطة وكانت نفسي تشعر بحزن وانقباض فلا غرابة اذا
حسن لعيني ان تسير حيث لا أرى احداً وقد شعرت بالانفراد في

أ
ح
ب
أ
ال
ال
ن
تلك الطريق حتي خيل لي اني اول من سار فيها من بني البشر
وأوشكت ان اصدق الخيال لولا ما اراه حولي من الاشجار المنزرعة
على حافتيها ثم رأيت في منحدر من الطريق لوحة كتب عليها
Chemin de La Solitude اي طريق الوحدة فقلت اشهد ان
من اختار الاسم حكيم .

سرت في طريق الوحدة وقد هدأ روعي قليلا بعد ان علمت
انه سبقني غيري الى هذا السبيل وشعر السائرون به قبلي بالوحدة حتى
جعلوها اسما عليه . وما زلت سائراً حتى بلغت فسحة كبيرة تلتقي
لديها ثلاث طرق وتفرق فاحداها تبلغ براكبها شاطئ بحيرة ليمان
والثانية تقوده الى بعض قرى «الكاتون ديقو» والثالثة دلنتني على غرة مني
الى حديقة كبيرة حسبتها في مبدأ الامر تابعة لقصر من القصور او
منتزهاً جاد به مجلس المدينة على الغرباء .

لما توغلت في ذلك البستان رأيت أعمدة من المرمر الابيض
واخرى من الرخام الاسود والواحاً من حجر عليها اسماء والقاب وآيات
من الانجيل والتوراة فوقفت بغتة باهتاً دهشاً وقلت بصوت سمعه
الوف الالوف ممن يسمعون ولا ينطقون «اتي اجوس خلال المقابر !»
وعند ذلك شعرت بعواطف متضاربة في صدري فخالجني السرور في

أول الأمر لبلوغي على غير علم مكاناً كنت أود زيارته ثم اعتراني
حزن لا تبي ذكرت نفساً أعز عليّ من نفسي ودعتها منذ أمد
بعيد وحق لي أن أعيدها وأأسفي في عداد الأموات . ثم ذكرت في
الحال أنني في يوم من الأيام (ولا أظنه بعيداً) سأرقد رقدة كتلك
الرقدات يكون فيها بيني وبين الأرض صخور واحجار تمنع اصوات
الاحياء ان تستأذن على اذني وتعوق جلبتهم ان تقلق راحتي او
نكدر عليّ صفاء وحدتي وتقطع احلامي في رقدتي .

ثم هدأت تلك العواطف المضطربة وعدت لنفسي وساد سلطان

العقل على جنود الخيال فأول ما حولت نظري اليه كان الجمال الشامل
والسكون الكامل لان الوقت كان بعد الغروب بقليل وكان الجو
غاية الاعتدال واذا اعتدل الجو في هذه البلاد سكنت الرياح وهدأت
الطير في وكناتها وصفا وجه السماء ولما كانت المقابر على مرتفع من
الأرض فالواقف في وسطها مثلي يملك منظر البحيرة التي كانت كمرآة
الحسناء نقاءً ومنظر الحقول الخضراء المبرقشة بأشجار ذات قطوف
دانية وثمار آن لها أن تجني ومنظر المدينة عن بعد سحيق بجلبتها وضوضائها .
وبعد ان حولت نظري من البحيرة الى الحقول ومن الحقول الى
المدينة ومن المدينة الى المقابر شعرت للحال برهبة اوشكت من شدتها ان
أخر ساجداً ثم احسست بأن السكينة دخلت على نفسي وان نزواتها قد

كمنت ونزغاتها سكنت وكنت قد آليت على نفسي ان أرقب ما
يدور فيها وما يطراً عليها ولذا استطعت ان افرق بين العاطفة الاولى التي
جالت في صدري وبين العاطفة الثانية التي تلتها ثم شعرت باختفاء
الثانية عن عين العقل وقد تلتها غيرها وكانت هذه العاطفة ناشئة عما
قرأته في صباي في الكتب عن عبرة الموت وعظاته وآلامه وكنت قد
بلغت منتصف المقبرة وانا اسير في طريق مرصوف بالصفاء وكما
سمعت وقع اقدامي حسبت اني اقترف جرماً لا يغتفر فقد تزعج
مشيتي هؤلاء الراقدين ففيهم من هو حديث العهد بعالم الاحياء وازعاجه
بوقع الاقدام محرك الآلام ومنهم قديم العهد بالارض فان هو شعر
بقادم تأفف وتضجر .

انتصف الطريق ورأيت اني كلما توغلت ساد السواد فكأني
كلما سرت خطوة ودعت الضياء واستقبلت الظلام فعجبت لذلك
ونظرت ورأيت فظهر لي ان التواييت وضعت بحيث يكون أقدامها
عهداً في آخر الطريق التي اعبرها واحدها في اوله لذا كنت امر في
سبيلي بموتى هذا العام ويتلوهم موتى العام الغابر وبعدهم موتى العام
الذي قبله ولما كان على كل قبر شجرة تزرع يوم الرقدة الاخيرة
فالشجار التي زرعت منذ مائة عام اكبر واعظم وأغزر غصوناً واورف
ظلاماً من الاشجار التي زرعت منذ نصف قرن لذا كنت كلما سرت

الغصون صد عن الناس ٧٤ طاباً

الى الامام سمرت في ظلال تلك الاشجار التي تحجب عنى اغصانها
آور النهار .

هذا قبر جميل من المرمر الابيض محاط بسياج من المعدن
الابيض وحوله شجيرات ذات زهور مختلفة الالوان وبآخره عمود
صغير مكتوب عليه « تذكارة ولدي العزيز شارل ولد عام ١٨٩٩
وتوفى ١٩٠٠ » اذن هذا طفل صغير عاش سعيداً ومات سعيداً
وهذا والد من والديه رآه وليداً وودعه فقيداً وتركه في القفر وحيداً
وليس لديه الا تلك الكلمات!

هذا قبر كبير غير محاط بسياج عليه آلة من آلات الموسيقى
مصنوعة من الرخام ولوح كبير من الحجر الازرق كتبت عليه هذه
الكلمات « الى هنري بوزيه من رفقائه وأبناء حرفته » انه قبر
موسيقي عاش يطرب الناس بأنغامه حتى دعاه داعي الردى فلباه
ولكنني أرى الفاظاً أخرى حفرت في الصخر على عجل ثم محيت
على عجل فما هي؟ دنوت من تلك الكلمات وقرأتها بعد تعب
طويل فقلت في نفسي تبارك ايها المازح حتى مراقده الموتى لا تخلو
من هذر المازحين . يظهر ان هنري هذا كان موسيقاراً في ملعب
وكان له صديق يحب المازح فاسترق ساعة كتب فيها على القبر

« لعل الله يختارك ويدخلك اركستر الجنة »

سرت الى الامام قليلا ثم رأيت عطفة تميل بي الى طريق آخر
فملت معها ولم أوشك ان أسير طويلا حتى رأيت عجوزين من النساء
في ثياب الحداد وعليهما سيما الحزن الشديد وهما تسيران صامتتين
والاسى يتكلم فلما ان بلغتاني حيتي احداهما على غير المألوف وهمست
احداهما في أذن الاخرى فدعاني ذلك ان أتبعهما بنفاري فرأيتهما
تسيران متلفتتين فخيل لي انهما حسبتاني صديقا قديما تسيهما ولكنني
رأيت واحدة تمسح دموع عينيها بمنديلها فظننت ان فقيدهما يشبهني
فلما رأتاني قالت واحدهما للاخرى ليته لم يميت ! وقالت الاخرى
لو كان هذا هو !

هنا بلغت العظة الكبرى ورأيت أجلا القبور وهو جدث عال
عليه جلال وليس حوله زهور ولا سياج انما نحت من صخرة تمثال
كتاب ذو صفحات وكتب على إحدى الصفحتين الباديتين
بأحرف سوداء واضحة « انني أنتظرك ١٨٩٩ بيربيلي » وعلى
الثانية « هاأنا ذا لوربيلي ١٩٠١ » وقفت باهتتا أمام ذلك القبر
العجيب بل ذلك الكتاب الحجري الذي قرأت فيه آية من آيات
الحياة وانها لا تبلغ من آيات الحكمة وأي حكمة أجل من حكمة

الموت ! هاتان نفسان إتحدتا في العالم الغاني وإتحدتا في العالم الثاني
وكما كان يضمهما فراش واحد أصبح يضمهما جدث واحد وبعد أن
كان قلب أحد هذين الانسانيين يخفق وينقبض لفراق أليفه هدأ
بعد ان اطمأن من شر البعد لان اللحد لا يخرج من يدخله ! ولكن
كيف قضيت يا بدير هذين العاميين منتظراً لقد لحقك الضجر لا محالة
إذا كان الموتى يضجرون كنت تسلي نفسك بأن صاحبك ان تخلف
الميعاد معها كان أمد الانتظار طويلاً وأنت يالور كيف قضيت هذين
العاميين أ كنت تذكرين كلمة رفيقك العزيز في كل يوم فتفكرين
في الموت صباح مساء وتستبطين الفرع الاكبر وتودين لو يأتي
سراعاً لتلحقي بزوجك المسكين أم كنت تنفرين من الذكرى اذا
عرضت لك وتفضلين ان لا تزوري المقابر لئلا تدعوك الزيارة
لوفاء الدين ؟

هذه مقبرة الانجليز وصلت اليها ! فاذا هي على حدة . قاتلهم الله يحبون
الاستقلال حتى في الموت وينكرونه على غيرهم في الحياة ! قبر طفل ولد في
استراليا وتوفي في لوزان ما بعد الشقة يا هذا الصغير ! لقد نشأت في تلك
القارة السحيقة المحاطة ببحار الجنوب ذات السهول الشاسعة والصحاري
القاحلة والوديان العميقة والانهر المتدفقة والحقول الغنية والاحراش
التي لم تطرقها قدم انسان ولم يجس خلالها الا الكنجرو ووحش البقر

ولربما ولدوك في كوخ بديع محاط ببستان انيق تغرد على غصونه بلا بل
الصباح ولربما كنت تلعب في طفولتك الاولى على ضفاف نهير تسيل
امواجه عسجداً وحملوك الى بلاد قصية قطعت في البلوغ اليها اشهر
شقت عباب تلك البحار وقطعت اوصال تلك القفار لترقد على ضفاف
بحيرة ليمان في ظلال الجبال الشاهقة . فلو علمت انك سائر الى حيث
يخط لك مضجعك الاخير اقل كنت تفضل ان يشق لك الحد في
ارض الذهب ؟

هذا قبر انجليزي آخر كتب عليه « عاش حراً ومات حراً » ايه
لك ايها الحرية فانهم يتغنون باسمك حتى في الموت ويودون ان ينسبوا
اليك ولو في القبور !

وهاك قبر نيكولا روسي مات في عام ١٨٤٠ شهيد وطنه
جاهد في سبيل توحيد بلاده ومات وهو يذكرها بقلبه ولسانه « نم هانداً
يا روسي فقد وحدت بلادك واستقلت واصبح علم الحرية يخفق على
ربوعها وكن عدوكم في قصره لا يخرج من بابيه وقد مجدوا ذكر
استاذك العظيم فبلغه ذلك ان كنتم تلتقون . لقد وفق غيركم
رجال من بني جنسك الى تحقيق امانيتكم انك لم تر بلادك
حرة متحدة واكن رآها غيرك فهنيئاً لك ولا مثالك

المجاهدين تبذلون نفوسكم في سبيل اوطانكم وغيركم يبذلون اوطانهم
في سبيل نفوسهم انهم لخاسرون ! نعم ياروسى فان امثالك كثيرون
رحمة الله عليكم اجمعين .

*
*
*

سمعت خلبي صوت فأس تشق فواد الارض فنظرت فاذا

انا ارى على بعد رجلين يحفران قبراً . اهلا بك ايها القادم الجديد
لقد ودعت عالماً كله نفاق وشقاق ، عالماً كله معاص وذنوب وجرائم
تشمئز منها النفوس النقية لا يسمع فيه الا اللغو ولا تذاق في جواره سوى
الالام والاحزان يهضم فيه الحق ويداس فيه الضميف ويهمل ويفوز
فيه القوى ببطشه وبأسه ، عالماً يسود فيه الاندال والجهال وتقوم لهم
دولة وصوله ويحقر فيه اهل الفضل لانهم عاجزون عن مجاراة الاسافل
الاشرار في ميادين الخبث والدهاء لقد ودعت عالماً يبحثون فيه منذ
نشأته عن الحقيقة ولن يجدوها ويتقون فيه الباطل ولكنهم يجدونه
في كل زمان ومكان ، عالماً يستعبد فيه الحر باسم الانسانية ويقتل فيه
العاجز تحقيقاً لمذهب القائلين ببقاء الانسب وتقترف فيه الاثام باسم
الجهاد في سبيل الحياة . هذا هو العالم الذي ودعته ولست ادري كيف
يكون العالم الذي انت عليه قادم ولكنني اعلم انك هنا ترقد هادئاً

تظلك الاشجار وتهب عليك نسيم الصبا حاملة روائح الزهور والرياحين
قم واعلم ان في عالم الاحياء من يحسدونك على تلك النعمة كثيرون.
دنوت ممن يحفر القبور وهو لاشك شخص مخيف في نظر بعض البله
والمجانين و بعضهم يتشاءم اذا رآه في الطريق او مر بداره ظناً منه
انه رسول الموت وحامل لواء عزرائيل لا يدب الا ويقتفي اثره قابض
الارواح ولا يزور قوما في الغسق الا والموت يباهم قبيل الصباح
ففظرت في وجه الرجل كأنني ابحت عن آثار الشؤم فاذا هو وجه
حسن التقسيم ولولا خوفي من تهمة الاغراق قلت انه وجه مبارك
ميمون فقلت له : —

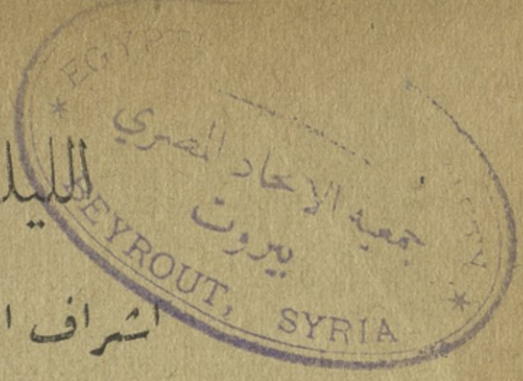
عم مساء يا اخي ايفلق الباب هنا عن قريب ؟
قال : يعلق الباب عند الغروب لولا مادعانا اليوم الى التأخير
وها انت ترانا نحفر لحداً .

قلت : وهل يجوز ان يدفن الموتى بعد الغروب ؟
قال : انها وحشة ابتدأت منذ أمس ولن تنتهي فلا فرق بينها
فوق الارض وتحتها .

قلت : نعم ما تقول اتسمح لي ان اسألك سواء الا يتردد في نفسي
من زمن طويل ؟ قال : سل ما بدا لك .
قلت : اعيش هنا في المقبرة ؟

الليلة العاشرة

اشراف النفس على المستقبل



كنت اقرأ كتابا في علم النفس وكانت نفسي تحدثني بانها تستطيع الاشراف على المستقبل استطاعتها الرجوع الى الماضي فلما زارني الروح الحائر سألتها في ذلك قال : « أعلم ان الاشراف على المستقبل هو من معجزات الكون وسر من اسرار الوجود لم يكشف عنه لاحد ولم يوت علمه ارفع النفوس قدراً . بيد ان الارواح اذا صفت استطاعت ان تستنير في الاستنتاج بشعاع من نور الحكمة الربانية . حدث لي في حياتي الارضية حديث عجيب سأقصه عليك . كنت اسائل نفسي دواماً هذا السؤال : —

« هل بين عواطفنا وميولنا في حياتنا وبين المستقبل الخفي الذي يضمه لنا الموت والفناء علاقة . ؟ وهذا سؤال حرت في الجواب عليه . ولكن حوادث الايام علمتني ان هناك رابطة قوية بين الحال والاستقبال وان حبلاً متيناً يربط الحياة بالموت .

كانت حياة صديقي الشاعر دي نافا وقصائده وكتبه ومنزله كلها تنبيء الخبير ببعض اسرار هذا العالم انه سيموت ميتة فضيعة وانه

لن يذهب قبل ان يرى الاهوال .

عرفته وعاشرته في بيته الجميل على شاطئ بحيرة جنيف وقضينا
معاً ساعات طويلة في حديث لذيذ في السياسة والفنون الجميلة والصحافة
والادب والتاريخ وتارة كان يريني تحفاً وطرائف من صنع المتفنيين
واخرى يسمعي نبذاً من كتبه او ينشد لي شعراً من ديوانه .

رجل اقوي جميل ذو هنية ووقار وهياة حسنة له شعر منسدل في
مؤخر الرأس ولحية مستديرة فكان وجهه محاطا بالشعر الذي يكسب
الرجل منظره الطبيعي ويبعث في قلب من ينظر اليه بالاحترام .
كان طويلاً بين الرجال عريض الكتفين كأنه من بقايا ابطال
الرومان . او من هراقلة اليونان . ولا عجب فهو ابن عروس البلاد
واعجوبة المدائن .

كان مع ذلك العظم في الخلق والجلال في الهياة كالطفل الصغير
دعة ولطفاً حلو الحديث اين العريكة بطي الغضب واسع الصدر
وهذه صفات الرجل العظيم .

كان يحدثني هذا الصديق الكريم عن أيام فتوته اذ كان
يطلب العلم في مدينته ويقص عليّ حوادث حياة الطلاب في المدينة
الخالدة ويصف لي حياة المتفنيين من مصورين ونحاتين وموسيقيين

وممثلين ممن عرفهم في صباه ويقص عليّ وقائعه الغريبة في احياء
باريس القصية في ليالي الشتاء . ثم ينتقل الى رجوليته وحياته السياسية
وتحمسه الشديد للحزب الجمهوري الديموقراطي ويسمعي نبذاً من
خطبه التي القاها امام الجماهير المألجة في القرى القريبة من بلده وفي
ساحاتها العامة . ثم يصف لي كيف عرف رئيس حزب الاشتراكيين
وكيف وكل اليه هذا رئاسة تحرير جريدته .

كان يعمل في اليوم ثماني عشرة ساعة بين تحرير وتصوير رسوم
سياسية ونظم قصائد للمجلات الادبية .

ثم انتهت تلك الحياة المملوءة بالحركة الدائمة وانقطع دي ناقا
للمنظم والتأليف تارة في وطنه وأخرى في سويسرا . واذا تكلم عن
وطنه كنت أرى في عينيه بريقاً غريباً وفي جبينه نوراً جديداً . ثم
يأخذ يقول عن مدينته وما والاها اكثر مما يقول العربي عن الجياد
والخيام بسقط اللوا وحومل .

كان يرسم لي بالفاظه وعينه وايماء يديه مدناً وقرى
مملوءة بالناس وارضاً خضراء ذات خصب وزرع كريم وسما صافية
لا تعكر تقاوتها الغيوم وبحراً زبرجدياً كأنه لسكونه وهدووه نيلا
يحمل تابوت موسى الكليم وجبالا شامخات تلمس بقممها الكواكب

وتناجي سكان الارض من رؤوسها سكان النجوم •

تلك بقعة من بقع أوروبا يصفها ابنها الشاعر الذي لم يعرف
المدح ولا الهجاء ولم ينزل بملكة النظم من العلى الذي خلقت لاجله
بل وقفها على ترديد صوت عواطفه ووصف جمال وطنه •

ولكن ••• استدراك ابدى هو محور الدائرة • لماذا كانت جدران
المنزل مزدانة بصور الموت ؟ لماذا كنت اذا دخلت غرفة الجلوس
رأيت في صدرها لوحاً نقشت عليه صورة تمثل هيكل انسانياً مجسماً
وفي يده محصدة يحصد بها النفوس وتحت اقدامه تجاجم وعظام لا
تحصى ولا تعد ؟

لماذا كنت اذا دخلت غرفة الطعام رأيت بدلا من صور الفواكه
والاسماك وقناني النبيذ التي تزدان بها غرف الموائد صوراً تمثل
الفناء نازلا على أهل مدينة ومرفراً عليهم بجناحيه المشوء وميتين ؟ وفي
إحدى النواحي غربان سحيم تنعق وبوم رابض لا يرى منه الا عيناه
الفضيعتان اللتان تملآن قلب الناظر اليها هلعاً •

لماذا كانت غرفة نومه مزدانة بصورة اوفليا وهي جثة خامدة
طافية على وجه الماء في نهر بديع على ضفتيه اشجار الصفصاف الخالدة
وعلى رأسها أكابيل من الازهار وضعته بيدها ليكون حليتها الاخيرة

وكانه رثاء الطبيعة لها ؟

لماذا كانت حوائط السلم مملوءة بصور بركان فيزوف اثناء
هياجه الاخير .

كذلك كان ما رأيته من مؤلفات صاحبي نظماً ونثراً . قلبت
صفحات كتابه « انحرافات الانسانية » فاذا هو قصص ليس فيها
الا احاديث الموت والفناء وتصاويره ذاتها مرعبة مزعجة . انه
يضرب لنا الامثال على لسان الانسان كما ضربها ايثوب ولافوتين
وعثمان جلال و ابراهيم العرب على لسان الحيوان . ولكن في كل قصة من
تلك نرى أثر الدماء المسفوكة والاشلاء المبددة والاجسام المشوهة . الموت
يرفرف على صفحات الكتاب من اوله الى آخره ، حتى قصصه التي
تبتديء بالعشق والجمال والسعادة تنتهي بالخراب والموت والفناء .
كأنك يا دي ناقا جمعت آلام البشر وحشرت فظائع الحياة الانسانية
في كتاب تناولت شعره فلم تكن دهشتي منه اقل من دهشتي لنثره
« رثاء سفينة لم ينج منها احد » • « صوت الموت » « اسرار قصر
شيلون » « جحيم دانتي » •

فلما رأيت هذا وذاك قلت : « ان صاحبي مفكر حزين وقد
يكون في المستقبل من واضعي الروايات الفاجعة • ولم يدر بخلدي

الليلة الحادية عشر

النفوس المموتة

زارني الروح الحائر وانا اقرأ ديوان شعر قال اتقرأ الشعر انك
اذن لا تزال متعلقاً بالخيال قلت : كيف ذلك ؟ قال ان الشعر صنع
الغاوين وقتنة ارباب النفوس الخفيفة لانه لا يكون خالياً من ذكر
الحب والحب حلم فارغ مزعج قلت : كيف تقول هذا وانت في عالم
الارواح عالم الحب والهناء الابدي . قال بل كيف تقول اني في
عالم الحب والصفاء الابدي وانت تعلم اني روح حائر انشد الحقيقة
بعد الموت كما كنت انشدها قبله . قلت وهلا تلمس الحب ايضاً قال
كلا : اني عرفت ثلاث اخوات فلما رأيت طبائعهن وبانت لي
حقيقة المرأة عرضت عن الخيال وهمت بالحقيقة قلت حدثني حديث
الاخوات الثلاث قال :

الاخت الكبرى امرأة متزوجة وليس للحسن في خلقها حسنة الا ان
مجموعها لا ينفر النظر وتقاطيع وجهها اذا اخذت جملة قد تخدع المشاهد عند
الوهلة الاولى . ولها من حين الى حين نظرة حسنة يسميها العرب نظرة غنج
ويصفها الا فرنج باللين . فيقولون انها ذات نظرة « لينة » لانهم يرون
انكسار العين فيفهمونه وانكسارهم لا يتصيبون فيه اني لم ارها بكراً ولكنني

اظن الزواج قد خلع عليها حلة لا يمنحها الا من يدخلن فناءه .

ابو الثلاث ايطالي المولد وامه فرنسوية من صميم فرنسا . فاخذتها
جدتها الى ايطاليا في صباها وحببت اليها السياحة فانتهت في نفس
البنات عواطف كانت خامدة وتحرك فيها العرق الدساس ففطنت
الى ما حولها من جمال الطبيعة وقضت اياماً طوالاً في كنائس بدوا
وفلورنسا ومعابد جنوة ومقابرها . كانت خجولا فتعلمت الاقدام
ومحبة لبيت امها فالت الى الاسفار . وهيء لها ان تسافر الى بلاد
الانكليز فلم تتردد واخترقت بحر المانش وقضت بينهم ثلاث سنين
تعلمت خلالها لغتهم وخالطت رجالهم ونساءهم واطلعت على كثير من
دخائلهم واستفادت من عشرتهم . ثم عادت الى فرنسا فتزوجت
من طالب لم ينته بعد من دراسته . اكتسب حديثها طلاوة المنطق فهي
ليست كغيرها من الفرنسيات . لا تأخذ القول على علاقته انما تحص
الآراء ولا تكثر من الحديث وهذه من نعم الانكليز عليها . تعلمت
الرزانة في الاخلاق ونسيت الطيش والحدة . لا اظنها كانت طائشة
في صباها ولكن لم تكن لتصل الى الاناة والتؤدة التي بلغت في العشرين
الانحو الاربعين

تعلمت ان الانكليز يعملون ولا يقولون وان بعض الناس يستيحيون

الخبث للتستروان ما يقترفونه في الخفاء تقشعرا الابدان من ذكره في العلانية
فرات ان هذه وسيلة لا بأس بها وانها تنيل الغرض وتحمي من الملام.
عرفت ذلك من حديثها وليكنني لم اعلم الى اي مقدار بلغ تطبيق
العلم على العمل في شؤونها . انما اعلم انها قادرة على اللعب بزوجها
كما يلعب الانكليز بكرة القدم . وهي تعامد كالطفل وقد تجده ايسر
من اطفال الانكليز الذين كانت تتعهدهم . لانها كانت مربية رأيت من
حديثها انهما تعتبر ذاتها زوجة انكليزية لزوج فرنسوي . هي العقل
المدير وهو اليد العاملة .

قرأت معظم مؤلفات اميل زولا وهي تلخصها كتاباً كتاباً امام
اختيها الصغيرين للاحياء ولا تخفى استحسانها لاشع ما كتب الاستاذ
الجليل فيخيّل لمحدثها انها رجل لا امرأة وقد يكون زوجها جالسا فلا
يفهم اكثر ما تقول واذا تكلم المسكين اشفع كل جملة من حديثه
بنظرة اليها وبقوله اليس كذلك يا زوجتي فتجيبه بلى يا زوجي الصغير
انها تتكلم الانكليزية بتردد كما يسير الطفل في شهوره الاولى ولكنها
تعير تلك اللغة الصلبة مروبة لسانها الجميل انها لم تقرأ كثيراً من
الكتب ولكنها قرأت كثيرين من الانكليز رأيتها يوماً وحيدة ولم
يكن معها زوجها فلم تترك لحظة تمر بدون ذكر كلمة تخرج عن سياج الاداب

من اللغة المحلية بين الطبقات الدنيا « اربعين » فاذا سالتها معنى ما تقول اظنبت
في التفسير ولم تترك مجالاً لقائل . فكنت اشعر بانها من النوع الذي
يمرح في الاقدار ويستبيح ما لا يستباح باسم الحرية . لقد انقذها الله
بالزواج الذي منحها الصون المصطنع والعفة المفتعلة ولست ادري
ماذا كان تكون حالها لو بقيت بدونه وقد جمعت في طبيعتها ميول
الفرنسيات وخبث جيرانهم .

اظنها تعيش سعيدة وتسعد زوجها اذا لم يمت قبل الاوان واذا
لم تلق في طريق الحياة من هو اجمع للصفات التي تستهويها . ان زوجها
يعيش معها على سفح بركان ولكن كثيراً ما تنمو على تلك السفوح
جنات خضر وحدائق .

الاخت الثانية لاتزال في عرف الناس عذراء . وعرف الناس
امر لا يعول عليه كثيراً . ولولا ذلك ما كتب مارسيل بريفو كتاب
« انصاف البكارى » . انها لاشك فتاة جميلة ناضجة ذات شعر
اسود وعينين دعجاوين ووجه مقسم وصوت رخيم وقوام جميل .
هي سمراء كأنها من اهل صقلية وفتانة كأنها من سكان نابولي الجميلة
ولها نظرة ساحرة كأنها من بنات البندقية . وقد دلتني حديث أمها
ان اباه ايطالي المولد فلا غرابة اذا جمعت تلك الصفات .

ان تلك البنية بقيت في نظري لغزاً لا يحل ومعجزة لا يعرف
كنها الى حين ثم رفعت العشرة الطويلة لي الستار عن حقيقة
خلقها رويداً رويداً . في بداية الامر لم يمكني الحكم عليها لان
نظرة واحدة مني الى رأسها وصدرها كانت تحدث في نفسي اضطراباً
لاني لم اكن أرى بشراً انما ارى تمثالا من التماثيل البديعة الصنع التي
أودع اساتذة النحت فيها نفوسهم وعقولهم وملاؤها بأسنى المعاني
التي تجول في صدورهم وزينوها باجمل ما استطاع التزيين به غير ان
هذا التمثال يتكلم ويروح ويغدو وله صوت ذو انغام موزونة
تطرب الاذن والنفس . انك يا قائلتي آية العاشقين !

ولكن النفس او الروح او العقل او الفؤاد او القلب او بعبارة
أخرى الموجود المعنوي الذي يستره ذلك الرداء المادي ماهو؟ ماهو؟
ماصفاته؟ هنا معجزة المعجزات وعقدة العقدة . اني لم اخل بالفتاة
الا دقائق معدودة فلم اتمكن من النظر في البئر العميقة المخفية وراء
تينك العينين السوداوين . ولكنها لحسن الحظ كثيرة الكلام
على المائدة . لا تمضي لحظة الا وتبدي ملحوظة ولا يرد ذكر أمر ما
الا ولها فيه رأي حتى اذا كانت في غرفة مجاورة وسمعت حديثنا
عادت الينا وقالت كلمتها . انها حادة الشعور جداً ولكنها كثيرة

القطر
١٢

الكتمان . انها لتجلس لحظة فتلعب بعقد الزبرجد الذي يحيط
بنحرها الجميل وتضع قطعة من الياقوت معلقة في طرفه الى ثغرها
كأنها طفلة تلهو فأفطن لساعتي الى الفرق الشديد بين لؤلؤ ثايبها
وياقوت عقدها ثم اذا هي تمعن النظر في الاشياء بدقة كأنها تدبر
مكيدة أو تستخرج سراً . ليس أعظم من الفرق بين الطفلة اللاعبة
والمرأة المفكرة الا اجتماعهما في شخص واحد .

انها تحب نفسها كثيراً واذا أبغضت حقدت واذا حقدت
انتقمت وانها لتودي بمن تنتقم منه . لو كانت ملكة لكانت اليزابيت
كلا ! انها أقرب الى كاترين دي مديتشي ولو كانت رجلاً لكانت
ما كيا فيلي ولو كانت حيواناً لكانت فهداً اسود . ولكن أليست
ايطالية ؟ قد تكون في دمائها قطرة من دم بورجيا وأخرى من دم
مديتشي . انها لم تخلق لتعيش عيشة هادئة في بيت صغير في شارع
سولي بمدينة ل انما خلقت لتشرق شمسها في بلاط مملكة من
ممالك ايطاليا في القرن الخامس عشر حيث يجد روحها الشرير مجالا
للدسائس وميداناً للايقاع بأعدائها . ان كلمة « فنديتا » مكتوبة على
جبينها . ولو عادت الى سهول كورسيكا او وديان صقلية حيث كان
يمرح جدها في الناس قتلاً وسلباً لرأت نفسها حيث تطمئن لانها

لا ينقص جمالها الفتان وعضلها المقتول وذكاءها الخارق واراقتها
القوية لتكون رئيسة عصابة الاثاب الجبل وسلاحه .

ليس في اللغة الفرنسية كتاب تجهله العذارى الا قرأته .
أطلقت لها أمها العنان فجرعت هنيئاً مريئاً من عين زولا الصافية
ثم أشبعت نفسها من مؤلفات بريغو وغذت ذهنها بأغاني مونمارتر
وشاهدت رواية سالوميه ولم يفتنها سواها . خلقها في هذا الجبل فالتة
من فلتات الطبيعة انها خلقت لتلبس تاجاً وتخرج من كيسها حقاً
صغيراً فيه سم زعاف تقتل به عدوها أو تشربه هي اذا وقعت في
يده وضاعت بها الخيل .

مستقبل الفتاة يصعب علي الحكم عليه ولكنني أكاد أراها
تمثل في دائرتها الحظيرة أدواراً تلائمها وتتحسر على انها لا تستطيع
اقتراف الجرائم وتشرب الدم وتصلب الاعداء .

اما الاخت الثالثة . فمخلوق لا معنى لوجوده . لا ينفع ولا يضر
لا يحيي ولا يميت قيمته في الحياة كقيمة الصفر على يسار الارقام
المعدودة . مسكينة هي حتى اسمها نسيته . لا ! هو جوليت .
مأغرب هذا الاسم على هذا المسمى !

جوليت بنية في العشرين من عمرها ولكن الناظر اليها يحكم

عليها بأنها من بنات الثلاثين. وجهها لا وصف له. ليس جميلاً وليس
قبيحاً ولكنه وجه مبتذل ذي تقاطيعه جافية كأنها مصنوعة من خشب
لا من لحم ودم كأنها صنعة النجار كذلك جسمها قطعة واحدة لا تقسم
فيه إذا سارت سارت كلها وإذا جلست جلست كلها وإذا وقفت
وقفت كلها. إن أعضاء بدنها نموذج في التضامن والتضامن صفة
محبوبة في أعمال الرجال ولكنه مبعوض جداً في أجسام النساء.

قيل لي أنها تعيش في بيت غير بيت أمها ولست أدري ماذا
تصنع وأظنها شبه خادمة أو نصف مربية. عيشتها بين الأجنبي
واعتمادها منذ فتوتها على عرق جبينها وتعويلها على تعبها عامتها أمها المنزل
والاستكانة. فهي المسكينة تجرد نفسها غريبة في بيت مخدومها
وغريبة بين أمها وأختها لأنها تشعر بان أمها لا تحبها ولو احبتها لا بقت
عليها كذلك تشعر بقبحها وجهها بالنسبة لاختها فلا تقرب من
أحداهما وإذا تكلمت همست كأنها طفل يتيم وإذا جلست على
مقعد يبدو عليها من المسكينة كالعبد بين أيدي سياده لا يكاد
جسمه يلمس طرف المقعد ويده مضطربتان في حجره ورأسه
مطرق وعيناه مغضيتان كذلك إذا تحدثت قالت قليلاً مبهماً
وسكنت بخوف ووجل كأنها تلهي يخشى عقاب الاستاذ إذا رآه

يتكلم في المكتب أو مجرم شاعر بذنبه ويحاول عبثاً الدفاع عن
نفسه والتبرأ من جنايته .

أما لا تعيرها التفاتاً ونادراً ما تدعوها الى الغذاء واختها الكبرى
إذا رأتها تشفق عليها وتدعوها الى بيتها بعد مشاجرة عنيفة بينها وبين
زوجها . أما الاخت الصغرى قالتين فتهزأ بچوليت المسكينة
وتصرعها بنظراتها كما يصرع الاخ القوي اخوته الضعاف بذراعيه .
وتتبه عليها بجمالها وتعاكسها بعنف كما يعاكس الاطفال بعض الوحوش
المسجونة في حديقة الحيوانات ان تلك الوحوش وراء قضبان من
الحديد يمكن كسرها ولكن چوليت في سجن اضيق واشد ولا يمكن
كسره هو سجن الفقر والقبح والذل !

رأيت هذه المسكينة ثلاث مرات فكنت اتقرب اليها تعزية لها
وسلوى وكنت ارى في عينيها عرفان الجميل يكاد يسيل دموعاً . قد
يكون قبح الوجه من دواعي حسن الطباع والاخلاق . ان نفسي
تحدثني بان چوليت كريمة النفس طيبة القلب لقلة ذكائها وجمالها .
ان تلك المسكينة عاجزة عن اتيان الشر وتلك الخشونة الظاهرة دليل
على الرقة الباطنة . لا بد ان تكون چوليت قبيحة الوجه جميلة النفس
عكس اختها الصغرى

اما عن مستقبلها فهو واضح جلي انها ستبقى من راهبات

القديسة كاترين الى ان تلقى شريراً ذكياً .

*
* *

هذه تصاوير الاخوات الثلاث رسمتها بما في وسعي من الاتقان
وقد قالت لي امهن انهن شقيقات وانها لم تتزوج الامن رجل واحد .
ولكن ابنتها الكبرى نظرت اليها نظرة ودت ان تقول بها اني يا امه
استبعد تلك النظرية ولو قبلتها فليس ضرورياً جداً ان نكون
نحن الثلاث ثمرات هذا الزواج .

قال الروح الحائر : هذه ثلاث نموذجات للمرأة لا تخرج انثى عن
احدها فاما كالأخت الكبرى امرأة لا تمتاز بحسنها ولكنها ترضي
زوجها فتكون عفتها عفة ضرورة وهي بوءة فساد كامن دعت الى
كتمانها الاكاذيب والنظامات المتفق عليها واما جميلة شريرة مثال
بازاها القريب منها والبعيد عنها كالأخت الصغرى وهي نذير خراب
البيوت تحفر طول حياتها قبوراً للرجال ومن لاتواريه التراب
أوقعت به في حباله والثالثة كائن لامعنى له لا يضر ولا ينفع جعلته
الطبيعة صدقة على من لم يقع فريسة احدى المرأتين .

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
الذي كنا لنهتدي لولا
هدايتنا ربنا العليم
الذي هدانا لهذا الذي كنا
لنهدى لولا هدانا ربنا العليم

الليلة الثانية عشر

الفكرة المحرمة

زارني الروح الحائر ققلت له اني لا ازال اذكر حديث الاخوات
الثلاث ولكني لا اجد للحب اثرًا في هذا الحديث . قال نعم اني
ذكرت لك طباع المرأة قلت ولكني لم اتطلب قولاً في طباع النساء
انما تطلبت منك حديثاً في الحب . قال : كيف الوصول الى ذلك
دون الوقوف على طبيعة المرأة إن الحب الا عنصر من العناصر
المكونة خلقتها فمن وقف على الخلق كله وقف على عناصره . قلت
أتيت لي في الليلة الماضية على حديث نساء تغلب الشر على الخير في
طباعهن فهل هذا كل ما علمت عن المرأة قال كلا ان لدي أحاديث
شتى عن حياتي الارضية قلت هات ما عندك لعلي أجد الحقيقة
التي انشدها .

قال « كنت أسبح في بعض بلاد الغرب فعرفت ربيته
اذ كنت باحدى قرى الالب . وهي عذراء في الثامنة
عشر من عمرها تكاد تكون لسواد شعرها ودعج عينيها
وعمقها شرقية لاغربية وكان لهذا الجمال الاجنبي معنى خاص به

ويظهر ان اهلها أنشأوها على التريبة والعادات السكسونية قوة في
الساعد وحرية في الفكر والقول • كنت أظن هذا الفندق الذي
نزلت به خلواً من الاضياف واني سأذوق لذة العزلة في رأس الجبل
خمسة عشر يوماً ولكن هذه الفتاة افسدت ظني وعكست أملي
وجعلتني منذ تحادثنا اكثر شغلا مني في اكب العواصم واكثرها اضطرابا •
التقينا في غرفة الجلوس الصغيرة الحقيمة في يدي « افكار بسكال »
وفي يدها « مكاتيب فرانسواز » وضع مارسيل بريغو • بدأت
تحادثني فذعرت لانني لم اعتد ذلك • قالت لي في آخر المجلس « اني
سعيدة اذا كان في قربي منك ما يخفف آلامك » غير ان خبرتي
باخلاق البشر وقتني شر الانخداع ولو كنت سمعت هذه الكلمة
وانا في السابعة عشر من عمري خررت امام قائلتها ساجداً • لكن
السنين القليلة التي « عشتها » جعلتني اذا سمعت اضعاف هذه
الكلمات الحلوة ابتسم بسمة ابتساماً غير المكثرت •

*
* *

في الجلسة الثانية تكلمنا في الفنون الجميلة وتبادلنا الخواطر عن
متاحف باريس وورد عرضاً ذكر صورة جوكوندا التي تزدان بها جدران
اللوفر فقالت رينيه انها لما رأتها لأول مرة منذ عام واحد بكت
فسألها بدهشة عما دعا الى ذلك البكاء قالت انها لما رأت نفسها

أمام تلك المخلوقة الكبرى هاجت عواطفها فاسدلت الدموع .
قلت لها ان دقة الاحساس الى هذه الدرجة تنغص حياة صاحبها
فضحكت الفتاة وقالت ولكن هذه الدقة ذهبت بذهاب العام
الغابر . قلت كيف ؟ اذا رأيت الآن أمامك منظرًا مؤثرًا
يكون بالنسبة لك في هذا العام كمنظر جوكوندا في العام الغابر
أفلا تبكين ؟ قالت : لو دعاني الآلهة الى مائدتهم وسقوني
بأيديهم المقدسة كووس الرحيق او خلقوا أمامي العالم بأسره
من جديد وعذبوا نصف أم الارض ما نزلت من عيني دمعة
واحدة . فأدهشني ذلك الكلام وقلت ان أشد الرجال بأسًا
وأقساهم قلبًا لا يقول مثل هذا القول وان قاله فهو مازح
قلت لي قل ان أفضع الوحوش الكاسرة لا يمكن ان يتصف
بتلك الغلظة . قلت كلا اتني لا أقول ذلك ولكن هل لهذا
الانقلاب من سبب قالت نعم . اتني أحبيت رجلاً كان
يجبني . ثم علمت ان حبه كان كاذبًا قلت لها او حادثة
واحدة كافية لان تقلب في نظرك نظام الكون ؟ قلت انك
رجل ولا يمكنك ان تفهم نفس المرأة انكم ايها الرجال لا تشعرون .
قلت عفواً ياسيدي . قالت ان حادثة واحدة تشمل حياتي

بأسرها • تصور الاحلام والاماني التي تخيلتها تصور قصور الريح
التي شدتها • تصور الساعات السعيدة التي قضيتها بجانب الرجل
الذي احبته • تصور اني لحبي له غيرت عقيدتي ودنت بدينه •
تصور اني منذ عرفته نظرت الى الحياة بعين جديدة ورأيت
المخلوقات والموجودات بشكل جديد • ثم تصور انقلاب ذلك كله
في لحظة واحدة ألا يحدث هذا الانقلاب ثورة مروعة؟ فلم اجب •
دخلت علينا سيدة متقدمة في السن فغيرنا الحديث بأسرع ما يمكن
وتكلمنا عن الطقس وجمال الشمس وعلو جبل زرمات •

*
**

الجالسة الثالثة في الغابة على شاطيء بحيرة صغيرة ماؤها آسن
كنت على مقعد خشبي صغير ادون بعض المذكرات واتمتع
بجمال الطبيعة ولذة الحياة واسمع تغريد طيور الضحى على
الاغصان الخفية واستنشق ملء صدري هواءً طاهراً نقياً • رأيت
عن بعد رينيه مقبلة وهي في ثوب ابيض وقبعة خضراء وعلى
رأسها قناع من القز لونه كلون البنفسج • وفي يدها باقة من
ورد الالب • فلما ان دنت مني اغلقت كتابي لاقرأ كتاباً
ابلع وابدع صفحاته عواطفها وسطوره كلماتها • قالت لي لساعتها
أتبني قصوراً فوق سطح الماء • قلت لها قد يكون ذلك ولكن

هيات ان تبقى اكثر من قصور الرياح . قالت ان اساطيرنا
تروي لنا قصة ارم ذات العماد . وكنت في طفولتي احلم أنني
دخلتها وملأت اكمامي من كنوزها . ولم اكن اعرف حينذاك
انها من قصور الرياح .

قلت لها ولكن هلا غيرت رأيك في العالم والانسانية
منذ اول امس ؟ قالت كنت امس في الكنيسة اسمع خطبة
القسيس . فلما ان بدأ جملته اللاتينية وقال اخواني الاعزة تلجلج
واعترته فهاهة ثم ارتج عليه . قلت لها ولماذا ؟ قالت لاننا تبادلنا
النظرات . قلت وهل يدعو ذلك الى تلجلج القسيس الخطيب ؟
قالت نعم لانه امس وجدني في الغابة نحو الغروب فدنا مني وحياني
فحييته وتحدثنا ملياً على غير العادة ولم يمض على حديثنا ربع ساعة
حتى فاتحني في غرامه . قلت لها أيتها الانسة انك تدهشينني .
قالت يجوز لانك لا تزال صبيلاً لا تعرف الحياة . قلت لها عفواً
ياسيدي . قالت : عفواً ياسيدي .

قلت لها إلا تفضلين ان نسير قليلاً في ظل الاشجار قالت حباً
وكرامة . فسرنا واستسما لنا للطريق فبلغنا مكاناً مشرفاً على السهل
والجبل فيه الشمس المشرقة والخضرة النضرة والمياه المنحدرة

١٠٢
الزاد البري
على كل الاسر

وتحدثنا طويلاً في أمور شتى . وانا لكذلك واذا السماء قد
اكفهرت والغيوم ترا كمت فاسود الجو واخذ الرعد يقصف والبرق
يخطف وانهمر المطر كاندفاع الغدران والانهار .

كنا بعيدين عن الناس مسير ساعتين على الاقل في حضن
الطبيعة امنا الخنون وبين ايدي عناصرها القوية . فنظرت الى
المرأة التي بجانبني والتي قالت ان الارض اذا انشقت والسماء اذا
انطبقت لا يعترىها اهتزاز فرأيت في عينيها اثر الرعب الشديد ثم
مالبت ان اضافت الى مطر السماء مطر عينيها فقلت لها بصوت عال
حاولت ان اتغلب به على صوت الرعد اي الاثنين تخشين ايها
السيدة الطبيعة ام انا ؟ قالت كلا لاهي ولا انت ولكنني اشعر
بخشوع امام ما ارى واسمع . قلت لها اذن ضعبي يدك في يدي
وهيا بنا نقصد ذلك الكوخ القريب . قالت اني لا استطيع ان
اسير في هذا المطر ان البرد شديد ياخي . فخلعت لساعتي ردائي
وتوسلت اليها ان تتلفع به ففعلت ثم ركعت وطلبت اليها ان احملها
فامتعت ثم رضيت وسرت بها استند الى عكاز صغير فنزل قدمي
تارة وتهتدي اخرى الى ان بلغنا الكوخ الذي رأيناه في اقصى
الغابة فلجأنا اليه الى ان يهدأ روع الطبيعة الغضوب . وكان
الكوخ خالياً .

كانت رينيه مغمضة عينيها طول الطريق فلما ان وصلنا الكوخ
نظرت حولها ونظرت اليّ وزال رعبها وما زلنا صامتين الى ان اتفق
الهة الجوّ فيما بينهم على ان يطلقوا الشمس من سجنها وان يقيدوا
البرق والرعد والمطر الى حين فخرجنا وسرنا بسكون نحو الفندق .

*
*
*

الجلسة الخامسة في غرفة الجلوس ذاتها قبيل نصف الليل كنت
أقرأ كمادتي وأستعين على خمود الدهن ووهن القريحة بقهوة البن
فدخلت عليّ رينيه مشرقة الوجه وقالت طاب ليلك يا صاحبي قلت
اهلاً بك وسهلاً آيتها السيدة . كيف انت قالت اتني انكر نفسي
قلت وكيف قالت ان قلبي بدأ يشعر بالصبي وعاود نفسي ظمأ
الغرام . قلت لها وهل عفوت عن الكون والمخلوقات ؟ قالت عفواً
شاملاً . قلت وكيف تمّ ذلك قالت غسلت دموع امس كل
الحزازات الماضية . وقلبت الريح صحيفة جديدة من حياتي . قلت
لا حقد على الرجل منذ اليوم ؟ قالت كلا . لماذا أحقد عليه ؟
ان اني آدم لم يحقد على امي حواء ورضي بها بديلاً من الجنة على
انها هي التي دنسته واطعمته الفاكهة المحرمة .

فقلت للروح الخائر وهل احببت هذه ؟

فلم يجب . وتواري .

١٠٤

عالم الدير صافقون

الليلة
الليلة
الليلة
الليلة
الليلة



الليلة الثالثة عشر

شعر الارواح

كنت اقرأ دواوين لشعراء الشرق والغرب المتقدمين منهم-
والتأخرين وكأني نصبت في كسريتي سوقاً للادب يعرض فيها
كل شاعر بضاعته وينشر كل جيل وجنس في أركانها ثمار افكاره .
واني لاقول في نفسي ان الشعر ملكة في كل انسان وانه
من الصفات اللازمة للمخلوقات العاقلة وقد يكون اظهر في بعض
الناس بقدر دقة شعورهم ولكن لا يخلو منه احد واذا بالروح الخائر
قد اقبل يشق ظلام الليل بنوره الرباني . قال لي اني اعرف
مايجول بنفسك فقد لمحت في زوايا الغرفة نفوس نفر من الشعراء
جاءت متشوقة مشتاقة تسمعك تنشد اشعارها ولو كشف لك بمثل
ماكشف لي رأيت الليلة حولك عجباً من ارواح الشعراء التي ترفرف
على كتبك وتسبح في الاثير الذي يحمل انفاسها التي كانت
ترددتها منذ كانت على الارض الفانية .

روى
عن
الشيخ
عبد
المنعم
المرغني
١١٠

على اني اود ان اذكر لك ماوقع لي منذ عهد قريب . كنت

وف في السماء كعادتي فاذا بي اسمع انغاماً شتى خارجة من مكن
خلف غيوم كثيفة تخللتها الوان قوس قزح . فدنوت واستمعتها فاذا
هي أناشيد تتغنى بها بعض الارواح فاستبنتها فاذا انا ارى اربعة
أرواح شاعرة • وفي يد كل منها قيثارة يوقع عليها ويتغنى فلما
قربت سكتت الاصوات واسترقت الارواح نظرات خفية فيما
بينها واوشكت ان تنصرف . فقلت لها بحق الوحدة التي انا
فيها والود الذي جمعكم ووقف بينكم هلاً انشدتموني شيئاً من
شعركم • فابتسمت الارواح واحداً بعد آخر وتقدم احدهم ورفع
بجناحه الملون ثم أمر يده على جبينه المكمل بالغار • وقال : أيها
الروح الخائر انك حديث العهد بأهل السماء وقد سمعت في الارض
شعراً كثيراً معظمه عقيم لان شعراء الارض لا يزالون لاتصالهم
بالمادة الذميمة مقيدون بقيود وضعها المحافظون لعجزهم وقد القم
هذا النوع من القول في شؤون لاتتعدد فلو انك سمعت ما نتسلى
به مما يقوم بنفوسنا دون قيد لم يرقك لحدائثه عهدته ولكنك اذا
مارسته استوعبته واستعذبتته . وان في أهل الارض بعض المفوقين
الذين جراًوا فقالوا الشعر كما أوحى اليهم وأعطوا الناس افكار
الارباب عذارى لم تعبت بها ضرورة الوزن ولا عذر القافية
والبحر » .

١٠٦
و لوني
البحر

قلت : اجل اني اذ كر شعر قرلين ووتمان

قال الروح الشاعر : وكيف وجدته؟

قلت : وجدته عذباً كالشهد وصادقاً كالحقيقة .

قال الروح اذن لن تنفر ان اسمعناك شعرنا وها انا ابدأ

بالنشيد وانا اصغر اخوتي واعجزهم .

ثم ابتعد الروح الشاعر الاول وأخذ قيثارة وشرع يتغنى بقول

وعيته بلسان الارواح ونقلته اليك على قدر استطاعتي . قال : —

بسمت الربيع

١

سمعت في الروض تغريد البلايل .

ورأيت في طريقي زهرة البنفسج بين الاعشاب .

وشعرت بحرارة الشمس القوية .

وخرجت نفسي من مخبأها تستقبل الفصل الجديد .

٢

الكون كله يتأهب للحياة .
والطبيعة بعثت من مرقدتها الطويل .
والموجودات كأنها آلات عازقة .
تشارك في احياء مولد الوجود .

٣

دع الانسان النهم يجمع امثال او يشيد .
ودع دولاً تحي وأخرى تموت .
ودع الحكماء يقولون مالا يعلمون .
وهلم بنا الى الاحراش والحقول .

Wordsworth

٤

الايام تجري مسرعة ، بل الزمان يقطعها قبل الاوان .
ولكن كل مشرق شمس ادنانا من مولد الربيع .
آذار رسول الجمال والنور .
آذار ملك على الايام والشهور .

٥

كالوالد الحنون يعد لولده مالا .
كذلك آذار اعد للعالم جنة الربيع .
صبغ افهام الزهور بالالوان الزاهية .
ونقش الكمام الورد في الاوراق الخضراء .

٦

سرت آذار في الكروم والرياح .
ومنحت الزهور والثمار من قوتك ونفحك .
ووهبت الاعناب رحيقا من خمرك .
وطوقت التفاح بنطاق من ذهبك .

٧

آذار انت طيب الطبيعة .
أنهضتها من فراشها بعد طول الرقاد .
وسيرتها في موكب عجيب لفت انظار الآلهة .
كل كائن يعترف على آله مطربة وكل زهرة كأنها علم منشور .

٨

١٠٩

ان الخزامي والترجس والاقحوان والياسمين تتيه بقدها
ولونها وريحها

والبلبل والقنبرة يتفاخران بحسن الصوت
والارض فرحة بحياة اطفالها
والشمس تضحك معجبة وتجود بحرارتها ونورها .

٩

يد الله يا آذار باركت في ايامك . انت نبي بين الاشهر .
في كل ليلة من لياليك تلد الطبيعة نباتاً جديداً
وتسمع في الغابات نغمة عذبة .
كل يوم من ايامك يكمل زينة الارض العروس .

١٠

لما اخترقت اليوم طريق الغابة وسرت على الاوراق المشورة ،
شممت رائحة الربيع في الاغصان .
الفصل الذهب تحت اقدامي والفصل الجديد محيط بي .
أفواه النهيرات تتدفق وكأنني لمحت في الغدير روح الماء .

١١

١١٠

آذار اعددت مجلس الربيع وشفيت الكون من علة الشتاء •
واحيت النبات والحيوان
واوقدت في نفسي شعلة الحياة
وذهبت ولم تر جمال الاشياء !

١٢

تلاك نيسان فورث مجدك .
كذلك لا يحظى بفوائد الاشياء من بذل نفسه في سبيلها .
افضل الناس من كان بينهم كآذار بين الشهور
سعادته في انه اوجد الربيع وقضى قبل ان يذوق الثمر •

فلما انتهى من انشاده ابتم بسمه الملائكة وقال: يقول اهل
الارض اجمل النساء لا تهب اكثر مما لديها ولعلك تجد احسن من
قولي لدى الروح الثاني

فتقدم الروح الثاني وقد لمحت في جناحه كثرة السواد . فسألت
الروح الاول في شأنه قال لي هذا الروح الحزين ثم اخذ الروح
الحزين قيثارة وتغنى :

١١١

يامعبودتي المحبوبة خذي قيثارك وغني لي اغاني الحرية .
واشعلي نفسي المعذبة بنارك المقدسة واسكريني بخمرك الابدية
وخذي حكمتي وتجاربي لئلا يعوقني العقل عن نيل الاماني
العقل جبان يقيد اللسان ويغمد سيف الفتوة .

لا يفوز إلا ذوو الاقدام . الارباب تلهمهم شجاة ابطال طرواده
والجن تنفخ في ارواحهم وتدفع بهم إلى حومة الميدان .
قلبي لا يسع الا حبيباً واحداً هو اشرف محبوب ودو اما يلهج بذكره
كنت أهاب الموت في سبيل حبه واليوم أود ان افديه بنفسي

نفسى تطهرت من شدة الآلام . وهمومي جلت صحيفة الجنان
ايض فؤادي من سواد الليالي وتبدد الظلام عن بصيرتي .
لكل كلمة اسمعها وقع جديد وأكل حركة في الكون معنى يشغلي
معجزة الحياة والموت اعطتني سرها . والعقل الاول يفيض

علي من نوره الخالد

الطبيعة ان ماتت بعثت والنفس ان شابت شبت
أيتها النفوس الخالدة ان لم تفتني الى سر الوجود هلكت
وان فطنت ازداد تعذيبك ومستك نيران سوف تكون آلامها نعيما
لان عذاب النفس العالمة الذم نعيم النفوس الجاهلة

ليالي العلام ليالي الغرام؟

عني ايتها الافاعي المطيبة واكسري كوؤوس الخمر العسجدية!
وابعدي عن ملمس كفي جسومك الناعمة واختمني عن عيني
بحسبك الساحر

وخلي فؤادي خالياً من الخيالات الارضية التي تعمي البصائر.

*
* *

ذقت مرة رحيق العلام! انه شراب الارباب والمطهرين.
سكرت فنسيت كل الدنيا فكأن الحقيقة اسقتني رضاها!
لم اود ان افيق لئلا تقطع عليّ احلامي.

هل يترك الجنة من ذاق لذتها وهل يتعد عن الحقيقة من لمسها!

*
* *

محبوبي الجميل اسير ومكبل بالقيود ودموعه ملأت نهراً جارياً!
كلما أرى محبو بأسوا حراً يزداد بغضي للعاذل الغادر واريد سحقه
كيف يسحق عاشق عاجز عدوه القادر؟
ولكن حب موسى اهلك فرعون العتيد.

*
* *

يارب موسى وداود !

هبني قوتهما جميعاً واجعل قوة العاذل أقل من العدم!
ويا أيتها الارباب القديمة القاطنة الكهوف والهياكل الخربة
لماذا تركت زهرتك تذبل وتذوي ؟

ويا حارس الارض المقدسة الرابض في القفر هل آن تبوح
بسرّك الاعظم ؟

*
* *

افقر الناس اغناهم . واكثرهم تواضعاً ارفعهم .
وابعدهم عن المجد اقربهم اليه . واسماهم جبا ادناهم من الآمال
ليس لي في هذه الارض قيد اصبع ولست املك من مائها قطرة
فخر غيري في امتلاك ارض الوطن وفخري في كوني ملك الوطن

*
* *

تملاً الكل واتحدوا على المحبوب . ولكن هل يعجزون الا انفسهم
ياطلاب الدنيا الزائلة وياعشاق الذهب الحقيقير !
ويا منافقون في سبيل اقدر الاشياء ويا مفرطون في اعظم النعم !
كيف تنامون ونور الحق سيبدد اوهامكم ويهزأ بأمانيتكم
الفارغة .

في كل عام يفيض النهر فتخرج امواهه الحمراء بين ضفافه الغناء
حتى اذا اطعم الارض وسقاها اندفع ليزيد ماء البحر
كأنه نفس تنضم الى نفوس خالدة لتزداد بها سعادتها .
معجزة النهر ترجع الى طفولة الارض وتكاد تنتهي الارقام
دون حساب عمره .

*
* *

ولكن انت ايها الانسان الزائل لا تفيض الا مرة واحدة .
ثم تغيض حياتك مرة واحدة .
فهل كنت كالنهر مادام شبابك زاهياً
هلا وهبت نصيباً من حياتك للارض الطاهرة ؟

*
* *

كانت إلهة المجد تفتني فاصبحت افقتها لاني زهدت فيها .
آمالنا تتم اذا اقتنعنا وما دامت مطاعمنا دام عذابنا
يطول عمر من يطلب الموت ومن يفرون منه يلحق بهم
حياتنا لها قيمة في ذاتها فدعني من قصة الجحيم والجنة .

*
* *

محبوبي المسكينة ترتجف في يدي وتبكي . ماذا بك ايها
المحجوبة؟

ان اسمك يذكّرني بفتيات المدينة الخالدة .
وشعرك اسود طويل لا ينقصه الا صفائر اللؤلؤ
وعينك أجمل من عيني سافو الشاعرة المجنونة

*
* *

انفك كأنف كلو بطرة . وثغرك حق مملوء بالجواهر .
وجسمك كأنه صنع ميلو الذي اودعته الطبيعة قوة الخلق فباراها .
ولكن قلبك الصغير قطة تفتأ تخفق بجناحيها .
هل لديه سر يريد اظهاره ام به شوق للوقوف على لغز الوجود؟

*
* *

تبيكين لآلامي؟ كفكفي انك تزيدنيها بلا علم وابقيا لتذرفيها
في الايام القادمة .

ان دموعك لؤلؤ فلا تسرفي . واشفقني فان حرارتها تحرق قلبي
انني اعرف آلامي وهي تعرفني . ولكن انت لاتعرفينها فابتسمي
قد يبدد الغيوم الكثيفة شعاع دقيق وقد تزيل احزاني

المتراكمة بسمة من فمك

*
* *

ياربة العلا تقبلي ما كتبت هدية مني
صحبتني طول عمري واسهرتني ليلي طوالا .
بنيت لك في قلبي معبداً سامياً ودونت لك صلاة فتحت فيها
خزائن نفسي

لا ادعو غيري للدخول في دينك لانك الهة قاسية!

*
* *

باركيني يا الهة العلا واغفري ذنبي
ان نلت رضاك و اردت جزائي فخير جزاء ان تتركيني وشأني *
لاتغاري ان بحت لك بسري ان قلبي تشغله محبوبة جديدة
هي اسمي واجل منك واسمها الحقيقة !

*
* *

قال الروح الحائر : ثم تقدم الروح الثالث بخفة كأنه يسارع
الى حرب ونظر الينا نظرة مريعة فقال لي الروح الاول هذا هو
الروح المعذب وسينشدنا اغنية النار فانشد الروح المعذب : —

اغنية النار

نأى العهد القديم واحسرتني
وصرت وحيداً الاقى صروف الزمن
فيوماً بشرق ويوماً بغرب
وكلا اليومين طويل بالاحن

*
* *

فلا الشرق يحلو لي جماله
ولا الغرب يطيب لي مقامه
ولا الدهر يحبوني يوماً بلذة
ولا العيش يصفوني لدى العود الى الوطن

*
* *

لي نفس تعذبني منذ عرفتها
هي نفس حائرة لا مستقر لها
هي طائر غريب حزين سجين
وسجنه ذلك البدن

*
* *

لا الومك يا نفسي فانت مثلي فريسة
وهل يلوم رفيق رفيقه
اذا تلاقيا في سجن دنيء كأرضنا
نفس لا يقربها قرار وجسم نحيل براه الشجن

*
* *

كلانا يا نفس رهين حبسه
ما جنيت يا نفس ذنباً وما جنيت ولكن حكمة في العلا
أرادت تعذيبنا
فصبراً يا نفسي ولا تجزعي . فكل عذاب له مدى .

*
* *

يخزني اننا ان خرجنا من سجننا اقترقنا
فانت اين تذهيبين هل لديك عن مصيرك من خبر؟
اما انا فمصيري مصير سواي من هؤلاء البشر
تراب ودود ثم هيكل لا يروق النظر

*
* *

يا حبذا لو احرقوا ابداننا وسانوا رفاتها
تكون رفاتنا لا بنائنا كبعض العبر
اما تلك العظام فانها تهان
وان لم تهن تصير غداء للشجر

*
* *

يا يدي كم من حكمة دونتها
ويا عيني قد رأيتما العجائب
ويا قلبي كم أمر جليل وحب كريم وحزن عميق في ثناياك دفينه
ويا قدمي طويتما الارض باسرها وما طواكما يوما شديد الخطر

*
* *

كم يد بيضاء ناعمة لمستها !
وكم وجه نضر جميل رأته !
وكم صوت عذب استوعبته !
وكم امل حلو تمنيته !

*
* *

وكم ذكرى تملأ النفس حسناً ذكرتها !
وكم ليلة كالدهر طولاً قضيتها !
وكم من صحف سودتها وبيضتها !
وكم يانفسي وكم هل عدتها كلها !

*
* *

في طرفة عين تصير جميعاً حديثاً مضى
وانا سيرة مختلط بسوءها حسنها
هذا ولا الاجرام يعتل سيرها
ولا تقف حركة الارض لحظة، انما يرد الى الارض طينها .

*
* *

ردوني يا قوم دخاناً يطير الى العلا !

فقد احببتما !

وهي التي اشقتني سنين واسعدتني دقائق

وهي التي حدثتني وحدثتها .

*
* *

النار عنصر لا يماثله غيره

هي روح دقيق نراه ويغيب عنا فهمه

هي رمز لرب موسى الكليم

قال لي عابد لو فقهت معنى النار عبدتها .

*
* *

قلت له وماذا يجديك حبها ؟

قال : هي مصدر الحياة لذا اريد تقديسها

هي خلاصة الشمس هي روح الورى

يا حبذا يوم يضمنى لهيها

*
* *

قلت هلا طلبت النار حيا فذقتها قال : انا نار ونفسي نار!
وقلبي نار وكل ما تراه مني انما هو شعلة!

فقلت وما قولك في جحيم جاءت بذكرها ادياننا؟

قال : اذكاكم اكثركم ذنوبا حبا في نارنا

*
* *

رأيتها يوماً في حجرة فراشها احمر كالنار

وخداها لهما لون كالون الذهب

وعيناها ترميان باسهم من نار

فدنوت منها ولمستها فشعرت في قلبي بالنار

*
* *

وحادثتها فقالت كلاماً اشعل نفسي كما تشعل الحطب النار

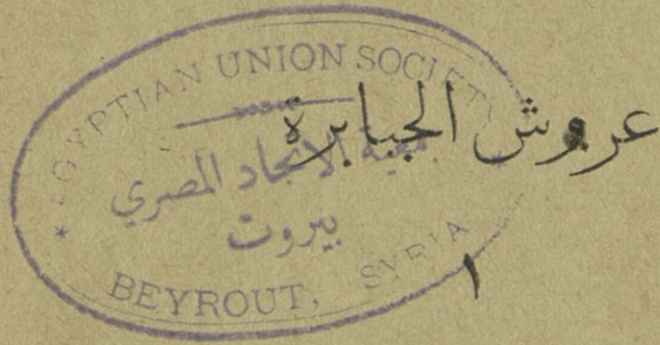
ثم رأيت شققاً في الغرب كمنقطة من نار

فقبلتها فاحرقت قبلتها في فصرخت من شدة الالم

قالت لي انا النار بيدي الايجاد والعدم !

*
* *

ثم تقدم الروح الرابع وهو شيخ بين الارواح له لحية وشعر
منسدل وكان شعر لحيته ورأسه لياضه كالجليد وبيده قيثارة وعكاز
على شكل القلم فقال لي الروح الاول هذا هو الروح المؤرخ سينشد
لنا اغنية يصف فيها صروف الدهر وحوادث الايام . فهمم الروح
المؤرخ ثم انطلق بصوت كالرعد يتغنى :



فرّ تبيير اذ هاج سخط الورى
وولى من رومة هائما مدبرا
كذا سخط الشعوب مشدت شمل الظالمين
ومبدل سكنى القصور بادنى القرى

٢

خاف جبار ان يحيق بعزه ما حاق ،
بعز اسلاف له اذ اقوا رومة علقما .
فحلى قصورا باذخات وراءه
وعزا مقما وعيشا رخيا ومجدا طائلا .

١٢٣

٣

وخلف عرش أوجست العظيم وهو باك فراقه
والكايتول والفوروم ونهيراً ساد الابحرا .
ولكنه فرّ من شعب غضوب وجيش ناغم
وسخط الشعب كسخط الرب لا يتقى .

٤

الى أين يامن سدت الرومان جميعهم ؟
وكنت بالامس ملكاً مطاعاً بل الاهاً اكبرا
ويامن قدت الجيوش وسيرتها
ويامن فرت لذكرك اسد الشرى

٥

ويامن هلمت قلوب القوم ان تكدر صفوه
ويامن أجاب نداءه الشرق والغرب معاً
ويامن ملكت الارض باسرها
ويامن اذا خطرت ببقعة تنحوا وقالوا : قيصراً!

٦

١٢٤

لى صخرة بالبحر بقيت من قارة الجن اثرا
جزيرة ذات حسن فاقت به الجزرا
«كابري» عروس الماء كعنفود الثريا في الدجى
جزيرة أورثت سبيلها مذسكتها خطرا

٧

شاد تبييرُ حصوناً في جوانبها
واودع كل حصن من جنده نفرا
وقال الويل لكم ان مرت بالحصن سابحة
ولم تحيطونى بأمرها خبرا .

٨

واعتلى كاهل الصخرة وشاد له قصرا
آية في الاحكام بناه انسان يحارب القدرا
صخور عاليات كأنها رماح صوبت نحو النجوم
ودعائم تكاد علواً تلمس القمر

٩

١٢٥

وقال هيهات ان يدنو من قصري ابن انثى
انا امبراطور رومة ! انا سيد الارض املاك البحر والبرا
انا رب الموج والريح والسما
انا اله الخلق من ارى منهم ومن لا ارى

١٠

حملت خير رومة ياتبير ولم تبقي في بستانها ثمرا
حملت المال . وماقىء المال يقضي به امثالك الوطرا
وحملت انكاراً وغلماناً لم يعرفوا دنساً وحملتهم ذنوبا
وصيرت كابري جحيا اذاغت ناره شررا

١١

دعوت الجزيرة جنة الفردوس لانها حوت ما اشتهيت
لقد لوثت الاسم وخذعت نفسك !
وأمنت إذ جعلت في كل ركن عينا ترى
ولكن القضاء ان حل أفقد البصرا

١٢

١٢٦

في كل يوم أحدثت مذبحاً .
وفي كل ليلة قتلت عفاً وطهراً
ولشد ما ابكيت وسالت عيون الحسان دررا
وهل يرق جامود وهل يمن صخر وهل يلين مخلوق لم يألّف
البشرا ؟ !

١٣

مغاوير الجزيرة الزرقا جرت دماء مدنسة
وارضها صارت لكثرة ما استقبلت حفرا
والبجر استغاث كلما هوت من صخرك العالي فريسته
وجاشت نفس نبتون فأغرى اربابا سواد فاضمرت لك الغدرا .

١٤

اتذكر اذ قدت العذارى وهي عارية
وأمرتها ان تسبح بماء كأنه فيروز جرى
ومتعت عينا غير قاعة

ثم اكتفيت فاعرت بيطونهن ان تبقرا

١٥

١٢٧

فجرت دماء الغيد كالياقوت حمرا
فكان لونها القاني ولون مغارة كابري من ابداع ما يرى
وراقك اللونان ففصدت الحسان مرة بعد أخرى
وسعدت بابشع الآلام يا أقسى الورى

١٦

اتذكر اذ عبثت بالاطفال اليافعة
واطالقت عليها الثعبان ينهشها
فسرت سموه في مجاري الحياة اليانعة
فاستغاثت منك شياطين سقر

١٧

حصنك العالى ياتبييرُ يقيق كل عدو مداهم
وصخرك الاشم يحميك اذا حاق الخطر
وجندك لا تغمض عيونهم
حظك لذيذ الرقاد وحظ حراسك طويل السهر

١٨

١٢٨

كم عدو القيت من أعلى صخرة
كما يلقي القتي عن مقلاعه بالحجر
فهوى الى قاع اليم مهشما
واغتاله البحر اغتيال الرمل رذاذ المطر .

١٩

كم سر عميق في جوف البحر العميق دفنته
وكم جرم خفي كتمته قبيل السحر
وكم حسناء أسلت دماءها
لترى رائع الموت في ضوء القمر .

٢٠

امنت الدهر ياتيبير واحتقرت عقابه
وحسبت كل شيء مسيراً في ركابك حتى القدر
اذا هاج الشعب قلمت شيوخه
فهابك الصغار والخوف داء الصغر

غضب الاله الحق يا من سلبت نفوذه
 و اراد بك شراً استحقته
 و ارادة الرب ليس منها مفر
 سوف يروى التاريخ ذكرك قصة وفي كل قصة لنا عبر

أوحى الاله للخلق ان يغضبوا
 غضب الشعب وكفى
 غضب الشعب من غضب الاله
 غضب الشعب بداية سخطه فانتظر!

انجلو قتي صغير السن كبير الامل
 نفخ الله فيه من روحه
 كان يصيد الاسماك يعول منها اسرقة
 و شاءت الاقدار ان يكون مثالا للبشر

رأى انجلوا قصرًا شاخًا ابصار الورى حوله خاشعة
 دعائه ناطحت السماء تعاليا
 ورماح حراسه تذيب الغيوم السابحة
 وتماثيل تبيير باركانه: رب يُخاف و يُتقى .

رأى انجلو شعبًا معذبًا
 يسام الخسف ويستقى الألم
 ذلّ قوم ليمرح واحد
 والظلم لا ترضاه أقل الامم

كان انجلو شجاعا لا يخشى الردى
 واثقًا بذاته مادام في فعله مخلصا
 يحب الناس اكثر من نفسه
 يود لو يشقى ليسعد غيره .

٢٧

ترك الصياد الشباك وخلي السمك
وقام ينادي « افيقوا من سباتكم »
فقالوا جننت يا صبي انك جاهل
وهل فاز معاند من اذا قال فعل .

٢٨

ايقوى الثرى ان يسامي الثريا في السما
او يريد الدود أن يطارد الاسد
أو تريد يا قليل الحول ان تقاوم مالكا
تخر له الافلاك اذا مشى

٢٩

قال انجلو ان المحال حجة من عجز
وليس عرش ظالم بياقٍ حتى الابد
اعزموا تتهدم دعائم من ظلم
ويهوى علاه كما تهوي أوراق الشجر

١٣٢

عبس الجمع وتولى ساخرًا من حقير يسامي الملك
وقالت امه : انجلو لا تقل يا ولدي ما تعتقد
لئلا تصير طعاماً للسمك وتتركنا عميلة بلا رجل
وبكت واستبكته، ولكنه لم يحل

خلا انجلو بذاته . فخار في أمره
وصار يسائل الارض والبحر والسما
صخور كابرى لا تجيب نداءه ولا البحر الصامت الخالد
ولا كواكب الليل لانها اعين ترى ولا تنطق .

ساد السكون وتجلي جمال باهر
وجاء الوحي محترقا حجاب الدجى
سمع انجلو في وحدة الليل الرهيب نداءه
« اصعد الى القصر واهرز عرشه ! »

٣٣

صاد انجلو سمكا نادراً بهي اللون كأنامل النساء
وولي يحمله لب العرش هدية
فلما بلغ سفح الجبل رأى حارسا
ولكن حباه سواد الليل ثوباً قائماً

٣٤

قضى ليله صاعداً صخرة تعلية واخرى تخفضه
في كل خطوة يرنو متلفتاً
وصوت السكون نذير الوجل
ولكن في قلبه صوتاً هامساً كأنه صدى صوت الامل

٣٥

قال والقوم حوله « المحال حجة من عجز »
كان كليمة نبراس يضيء سبيله
وكان صخور البحر حبت بالثبات فؤاده
وتلاطم الامواج أنغام تشجع قلبه

١٣٤

تسلق أنجلو جدار القصر قبيل الشروق ببرهة
ثم بدت الشمس من خلف الجبال العالية
عين الاله اطلت على الورى لتكسو الارض نوراً باهرا
فاستوقف ذاك الجمال جنان الفتى

طلعت الشمس كقرص من ذهب
والقت على الماء شبا كها وصبغت عسجداً غصون الشجر
الماء عن بعد زبرجد سائل
وقيزوق يتنفس دخاناً ترحيباً بالضحى

رأى الخراس شخصاً قادماً فهاهم لانهم لم يظنوه من البشر
حصن تبيير مقدس لم تطاه بغير علم ربه قدم
من ذا الذي لم يرعه الخطار . بهتوا ولم يجسروا ان يدنوا ..
ما هذا الحقير؟ اشبح زائل؟ أم رسول من العلى؟!

قيصر لا يزال في فراشه . ما عرفت عيناها سوى نور الشفق
 قضى الليل في جحيم مذهب
 كذا اليوم يقضي في رقاد مزعج
 ومن يحظ بصفو الليل يلق في النهار الكدر

٤٠

استأذن الحراس على قيصر ودنا رئيسهم على حذر
 وقال : انسان تسلق صاعداً .
 قال تبيير : تسلق ماذا ؟ اجب !
 قال الرئيس : تسلق يامولاي سياج القصر

٤١

قال تبيير : قل رام أسباب السماء بسلم
 ولا تقل تسلق قصر رب هذا العلا
 قل شاء انزال كواكب الفلك
 ولا تقل استهان انسي بعرشنا

تمنطق تيمير وسار الى ساحة القصر مسرعاً
 كمن يريد خرق الارض أو بلوغ السحاب
 غضوباً حانقاً ولكن في فؤاده ديب الذعر
 فلما دنا رأى قتي صغيراً عالي الجبين بهي النظر

تقهقر الحراس اذ بصروا برب البرج قادما
 وايضت وجوههم لما رأوا في عينه نار الغضب
 وقال الكل اليوم غاية عمرنا اليوم حل بنا قضاء القدر
 الا القتي الصياد تقدم باسمنا والقتي بأسمائه تحت اقدامه

«هذي يامولاي أسماك حملتها اليك هدية
 أحسن ما صدت وصاد آبائي منذ القدم
 انظر اليها حمراء دقيقة
 كأنها أنامل حسناء تلمس نحرها وقت السحر»

«أنت من وكيف بلغت رحابنا
وكيف جزت الصعاب ولم يدركك الحرس
«أنا قتي حر أريد أن أبدي لامثالي المثل
فقد نزهوا عرشك عن ان ينال

تسلقت القصر وجزت الصعاب اليك
ليعلم القوم ان أعلى الحصون تمنعاً قد ناله ادنى البشر
وان صياداً حقيراً أراد فلم يعجز عما طلب
وها انا يا ظالم اهز ارفع عرش في الدنيا «

بدا الغيظ الشديد في سحنة الضبع النهم
ورأى الحراس طيف الفناء حول القتي حائماً
وحاول علبج بينهم ان يسئل حسامه
فقال تبيير مكانك هذا فريستي !

ومدّ معصما لم يعرف لذّة العمل
 خلفه صراع الوحوش ملفوف العضل
 ونال أنجلو من منطقة حول خصره
 فكأنهما ذئب وحمل

وراح الغشوم ثابت الجأش مبطناً
 حتى دنا من صخرة اطلقوا عليها اسمه
 استغاثت مما سقاها من دماء البشر
 وطوح بالتمتى ثم القى به فهوى

هوى أنجلو الى البحر مهشما كما هوت الوف قبله
 ولكن الهواء والجدران والصخور رددت قوله :
 « اعلى الحصون تمنعاً قد ناله ادنى البشر
 ليس عرش ظالم بياق حتى الابد »

تولى الرعب فؤاد تيمير فلم ينم
 أينما حلّ رأى شبح الفنى واقلقه صوته
 «اعلى الحصون تمنعاً قد ناله ادنى البشر
 ليس عرش ظالم بياق حتى الابد»

سقت نفس انجلو في كل حي بذور الامل
 وعلم الشعب مقدار بطشه
 ولم يطل عهد تيمير بعد ذلك اشهرًا
 وسار ذكر انجلو في الارض مسير المثل •

*
 * *

قال الروح الحائر: فلما سمعت هذا واستوعبته نظرت حولي فاذا
 الارواح الشاعرة قد انصرفت فحملت البك كلامها •

...==...

الليلة الثالثة عشر^(١)

النايب العلاء

كنت ادون اسطراً في صحيفة . فدخل الروح الحائر ويده
المصباح . قال : « ماذا تكتب » قلت : « اعبر عن عواظني
بالفاظ البشر الموضوعه لغير ما تريد بيانه » . قال : « طالما دونت مثلك
وكل مادونت مدفون » قلت : « واين تلك المدونات » قال : « وما
حاجتك اليها » قلت : « اني لم اقرأها في حياتك الارضية فلعل
فيها ما ينفعني فأتلوه او ينفع الناس فأنشره » قال : « انها في
المنزل الذي خلصت فيه من الثوب المادي في صندوق خشبي
عتيق في حراسة صاحب الدار وهي كل ما تركته من متاع الدنيا »
قلت : « اني ذاهب اليه لأحصل عليها » قال : « لك ما تريد . »
ولما كان الصباح قصدت المنزل القديم وحصلت من صاحبه على
لفائف من الورق المكتوب فقرأت ما فيها فاذا بها فصول شتى
كتبت في احوال متباينة اذيع بعضها واحتفظ بالبعض . والذي اذيعه
« حديث العلاء » وهو مجموعة اناشيد شتى .

(١) اقرأ : الليلة الحادية عشرة والثانية عشرة وتجاوز عن السهو .

حديث العلاء

التفسير الاول

يا إلهة الشعر ! يا شرف الملكات يا صوت النفس والوجدان !
يا ملجأ الحزين وموئل الشاكي من بني الانسان !
يا أيتها النفس القوية الجميلة المجهولة يا ذات العطر الضائع في كل
زمان ومكان !

يا ترجمان الفؤاد ولسان القلب ومنطق الطبيعة !

انت المعبودة التي لا ينأى عن تمجيدك الا ذوو النفوس الضعيفة
الجامدة انت سيدة الآلهة في هذه الارض واشدهم قوة وانصرهم
شبابا وافصحهم بيانا .

عبادتك ترجع الى القرون الاولى قبل ان يعبد باكوس وقبل
ان يسجد للزهرة .

لقد انطقت لسان آدم الاول مذ التفت فبصر بمخلوق جميل
اسماه حواء .

انت انطقت لسانه مذ نظر الى ماحوله من جمال الطبيعة

وحسنها فخر ساجداً .

لقد ضقت بك ايها المعبودة ذرعاً وانا اليوم لا استطيع صبراً .

لا أقدر على السكوت ياربة الشعر فلا سبيل الى الكتمان .

لم تضعي في نفسي ميزاناً يزن الالفاظ ولم تمنحيني مصقلاً .

اصقل به الكلام ولم تهيني زورقاً ذهبياً اخوض به عباب

ابحر الشعر ،

لم تهيني نفوذاً شاملاً على المعاني الجليلة لتجيني اذا دعوتها ،

لم تعطي موهبة من مواهب الشعراء السعداء الذين

يعبدونك ،

فاعذريني اذا لم افاخرهم بالفاظ كألفاظهم لها رنين في الاذن

وطعم حلوة في الفم .

اعذريني ياربة الشعر اذا كانت المعاني السهلة المنال التي

اظفر بها لا تبهر من يقرأها .

اعذريني اذا خلا تسبيحي اياك من الجلال والجمال اللذين

لا يليق في حقك تسبيح بدونهما .

واعتقدي ياربة الشعر اني اعشقتك واعبدك ولا انساك في

صحوي ورقادي !

قد يكون أقل العاشقين بلاغة أشدهم غراماً .
انت أيتها الالهة الجميلة التي تظهرين لي ساعة فتحلين عقدة من
اساني وترفعين غطاء من الاغطية الكثيفة التي تحجب الحقيقة
عن جنائي!

اني ابهج بذكرك!
انت أيتها الالهة التي تقر بين مني حتى اذا حاولت ان المسك
غبت وذبت امامي كما يذوب الحلم الجميل قبيل اليقظة .
انت التي املت عليّ اذ كنت باعلى الجبل قولاً بديعاً
واريتني أعظم ما يرى واستنزلت علي نفسي اسمى ما ينزل به الالهام
فلمحت بين النخيل عند غروب الشمس وجهاً دام برهة ثم اختفى .
فخررت صعقاً ولما تنبهت لنفسي رأيت رأسي على حجر ووجهي
ساجحاً في بحر من دموع الخشوع والفرح .
انت ايتها الالهة ادركتني على شاطيء البحر وأوصيت الحياة
فأخذت اصرخ من أعماق قلبي حتى كاد صوت الامواج
المتلاطمة يخفت بجانب صوتي .

كنت ايتها الالهة اعبدك سرا واخفي امرك عن غيري . واليوم
عجزت عن الكتمان فما انا اعبدك على رؤوس الاشهاد

ان العاشق يبقى زمناً ما كما حبه ووجوده حتى اذا يس باح لعل
المحبوب يشفق أو لعل العاذل يرحم . اني اليوم كذلك وان لم اكن
يسست منك ولن اياس ابداً . جئت ابوح بهواي لعلك ترحمين أو تشفقين !

جئت يا الهة الشعر استعين بك على إلهة قاسية جميلة مثلك .
اعطيني قيثارتك وصوتك ! اعطيني وترًا من اوتارك لا وقع عليه انغام
النفس المعذبة !

ان الالهة التي اشكو منها واليهالاتزال في عنفوانها وقد هرم الدهر
انها اهلكت الامم والاجيال وافنت الشجعان والابطال ولا
تزال تتطلب المزيد !

ان لها في كل يوم الف فريسة . وتلك الفرائس كلها غالية
عزيزة . ولكن الالهة القاسية لاتعفو ولا تصفح . انها تبذهن جميعا
وتهرق دماءهن وهي باسمة مسرورة لانهن يذهبن سعيدات .
ان تلك الالهة هي التي عبثت بسقراط وهنريال وقيصرواتيلا
وبونابرت وهوش .

وعبثت باآلاف مثلهم من قبلهم وستعبث باآلاف بعدهم .
ولكن يظهر لي ان الفرائس الكبرى هي التي لاتعرف اسماءها .
أما التي نعرفها فهي اصغر بكثير ممن لم تذكر .

ان هذه الالهة القاسية تسمى « العلاء »

*
* *

لو سألوني عنك ايتها الالهة وطلبوا مني وصفك عجزت ولكنني
لا انكر وجودك الذي اشعر به كوجودي . حبك يملأ نفسي ويفعمها
انك ممتزجة بعواطفني ودمي . انك ايتها الالهة القاسية تجرين في
عروقي . انت واضحة مبهمه . ظاهرة غامضة .

اذا شئت ان انحت لك تمثالا أو انقش صورتك على لوحة
ترجف يدي وتعجز عن اتقان شكلك . وسرعان ماتفرين من
امامي كأنك بنت الغابة في الطراد .

ولكن قد لمحتك مرة رغم ارادتك ! رأيتك اذ كنت يوماً في
أشد حالات الضيق والاسى . وقد اسود بياض الدنيا في عيني .
يوم كنت ارى نفسي محققاً مهضوماً وغيري ظالماً ظافراً . يوم رأيت
الحياة عبثاً والجهاد عبثاً والثبات جيناً والصبر نوعاً من الجنون . يوم
تملكني اليأس واحاط بي . يوم حاولت ان اشرب الكأس التي
شربها سقراط لاخرج من المعركة الدنيئة التي طوحت بي فيها يد
القضاء الظالمة فظهرت لي !

نعم رأيتك بوجه لا انسى جماله وقونه ورأيت جبينك الوضاء

مشرقاً كأنه مهبط وحي جليل ورأيت في يدك اليمنى مصباحاً من
نور وائت تشيرين به كأنك ترشدينني الى السير الى الامام وفي اليد
الاخري اكليل من الغار تومئين به نحو رأسي !

فنتبعت من سكرة اليأس ونظرت اليك طويلاً . ولم أخجل
من جمالك وقوتك ولكني قلت لك بصوت أجش لم تسمعه اذناي :
« من انت ؟ تكلمي ؛ فدنوت مني ووضعت قبلة على جيني ثم
قلت بصوت لايزال دويه في نفسي « انا العلا »

فنهضت وحاولت ان امسك بذيلك فطرت عني بأجنحة لم
أرها وطارت نفسي وراءك شعاعاً . ثم صحت الصحوه الكبرى
ولمست جيني فاذا عليه لؤلؤ العرق الرطب ولمست بدني فاذا انا لاأزال
ارتجف من أثر قبلك كأنني معشوقة ضعيفة بين يدي عاشق جميل
قوي ! هذه حمى العلا !

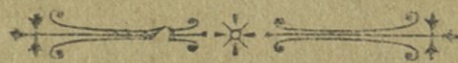
من تلك الساعة بعثت في هذه الحياة بعثاً جديداً ولبست
للعيش ثوباً قشيباً وقابلت الدهر والقضاء والفقر والحزن والألم
بقاب قوي وثغر باسم .

منذ تلك الساعة هزأت بصحتي وراحتي وبدأت لاجلك
السعادة والهناء منذ تلك الساعة شعرت بقوتي وشبابي !!

منذ تلك الساعة طلقت الحياة « الدنيا » طلقة بائنة ورأيت كل
شيء دون الخطوى بقربك دوناً .

منذ تلك الساعة رأيت الدنيا بأسرها هينة في جنب رضاك .
منذ تلك الساعة شدت لك في قلبي معبداً اجدك فيه كلما
خلوت بنفسي . مصائب الدهر كلها تزول عني اذا عزمت على الصلاة
لك . والوحوش الضارية التي تسمى ذاتها « انسانية » تخضع لي
اذا ذكرت اسمك ان الله اعدائي يحبونني لاجلك . واقرب اصدقائي
يبغضونني لاجلك !

اني اعيش بك ولك ! وبك ولك سوف اموت !



الفَسِيرُ الثَّانِي

حذار ! لئلا لاتنال الجائزة !

ايتها الالهة القاسية ، انني منذ عبدتك نسيت كل شيء دونك
ووهبتك كل شيء . ووهبتك حياتي وسعادتي فماذا ووهبتني ؛ انك
ووهبتني خيالا عذباً وفكرة جميلة تسليني ولكن هيهات ان تحقق !
اسمعي يارب المجد !

ألا تذكرين يوم كنت في قرية جميلة بجانب منبع ماء عذب
وحولي غابة كثيفة اشجارها الباسقة ذات السموق تناطح السماء والسكون
حولي هادي شامل و بين يدي فتاة حسناء تعارفت نفسانا لاول وهلة
فدنوت منها وجلست بجانبها واصغيت الى خرير الماء ووضعت يدي
في يدها واخذت اقلب اجفاني في صحيفة جبينها تارة واخرى في
صحيفة السماء ثم وضعت يدي على جبينها فاضطربت وارتجفت
ودنت مني رغم ارادتها ولم يكن بين تغري الملتهب وجبينها الا قيد
شعرة فتجلت انت امامي بجمالك الباهر وقوتك القاهرة وصرخت
في اذن نفسي بصوت لم يسمعه سواها مشيرة الى اكليل الغار :

« حذار ! حذار ! لئلا لاتنال الجائزة ! »

فانتفضت ونهضت ذعراً كمن رأى ما يهوله في حلم عميق .
وابتعدت لساعتي عن المرأة بل ابعدتها بيدي كأنني يوحنا يبعد سالوميه
انني ايتها الالهة القاسية اخرجت قلبي من صدري بيدي
وألقيت به تحت قدمي وسحقته سحقاً وحبست عواظني في سجن
من الجفاء والغاظة كما يحبس الساحر نفرأمن الجن في ابريق سليمان .
واذا عبث عابث بذلك الابريق واطلق سراح عواظني فاني منها
براء لانني اذا تركتها في سبيلها حرمت الجائزة !

لقد جعلت نفسي ايتها الالهة الغيور بلا قلب ولا عواطف
لانك لا تحلين الجمع بينك وبين معبود سواك .

اتذكرين ايتها الالهة القاسية اذ عثرت بيت جميل فيه فرش
وثير وورزق كثير وقلوب تحبني ونفوس ترجو رضاي . فلما ان آويت
اليه واطمأنتت الى العيش فيه تجليت علي في اسعد اويقاتي وهتفت
في اذني « اراك استوعبت النعيم واستعذبت العيش الرخيم فانفض
والالاتنال » الجائزة ! »

فقممت من مكاني ورأيت ان الحلم اللذيذ لا يطول . فتعلق
الناس بي وقالوا الى اين ايها المسافر الذي لا يلتقي له رحل والطالب

الذي لا يشبعه علم والطامح الذي لا يرضيه مجد . فقلت لقد كتب علي ان
اطوف الارض وان أطفئ ظمأي بالحكمة وهيبات ان يقري قرار
أو يعرف ليلى من صبحي !

أيتها الالهة القاسية لو ان الطبيعة الظالمة مدت في اجلي وذرعت
فضاء المعمور والمهجور وطففت الصحاري وخضت غمار البحور
واستوعبت حكمة البشر وعركت الدهر حتي غالبت القدر فهل انت
قاعة بذلك مني ؟ وهل انت قائلة لقد نلت ايها الشقي بحي تلك
الجائزة ؟

لقد اعطيتك حياتي وعقلي وراحتي فماذا اعطيتني أيتها الالهة
القاسية ؟

اعطيتني الا ما لا اطيعها وحيرة لا اخرج من حبالتها وشكوكا
لا يقين وراءها وليلا مظلم لا فجر بعده !

انك تمنيتني بانخلود ! وما هو انخلود ايتمها الربة الخادعة ؟
أليس هو بقاء ذكر فان في ارض فانية ؟ أليس هو سطر يكتب في
الهواء لتذروه الرياح . أليس هو خيال كلما تبعته تركني وكلما
اقتربت منه ابتعد عني ؟

ان الاهرام متهما رسخت جدرانها وتوطدت قواعدها والتحمت

صخورها لا بد زائلة . وقد نظرت يوماً الى الغمام الذي يسبح فوقها
في بحر من الاثير وسألت نفسي اي الاثنين اخلد؟ أتلك الصخور
الراسخة الباذخة أم تلك الامواه التافهة المتجمعة في كتلة تحولها
وتذيبها اشعة الشمس اللطيفة ؟

نظرت الى حبات الرمل الحقيمة التي تعد في موضع القدم
بالملايين وسألت نفسي اي الاثنين اخلد أتلك الاهرام العظيمة ذات
الاحجار الجسيمة ام تلك الحبات الحقيمة ؟

نظرت الى ذرات الاثير في الهواء وهي لا ترى بالعين ولا تلمس
بالكف لانها الطف من اللطف وسألتها أنت اخلد ام ماشاده مائة
الف من بني الانسان في ثلاثين عاماً من الزمان ؟

فأجابني الغمام وحبات الرمل وذرات الاثير : « الا اننا جميعاً
اخلد من اهرامك الزائلة لاننا كنا قبها وبعدها سنكون . اما هي
قبل رفع دعائهما فلم تكن وبعدها انقضاها لن تكون !

أليس هذا هو الخلود الذي توعدون ؟ ان حبة من الرمل
وقطرة من المطر وذرة من الاثير ابقى على مدى الدهر من حياة
الانسان واعظم اعماله !

بل ماذا فخرنا وخلودنا . وماهي تلك الانسانية المعذبة الضالة

المضلة؟ الا يذكر اسم كاتيلينا كلما ذكر اسم شيشرون الا يخلد
اسم الا سخر يوطي خلود اسم المسيح؟

يانفسي الضعيفة الجاهلة ويا فؤادي المعذب الضال كيف السبيل
الى القوة والعلم؟ كيف الطريق الى الهدى والسعادة؟

يا قوى الارض الظاهرة والكامنة! يا سرار الحياة الواضحة
والباطنة، هل عندك لتلك الاسئلة من جواب؟ بل انت ايتها الالهة
القديمة يا ذات التصرف في العوالم كلها هل لديك قول فيه فصل
الخطاب؟

ان حكمة الفلاسفة مذ كانت البسيطة في طفولتها وحنكة العلماء
بعد ان بلغت الانسانية كهولتها وكتب السماء والارض كلها
عاجزة عن الجواب.

ان الناس حولي يذهبون ويحيئون وهم في كل لحظة يحزنون
ويفرحون ويعيشون ويموتون. وان لهم لاصواتاً يملأ دويها الفضاء.
ويضيق دون تموجاتها الهواء. ولكنني اذا القيت على الانسانية
سوءالي سكنت حركتها وهدأت اصواتها وصمتت افواها ورفعت
ايديها الى علي كأنها تظن به ما يشفي غليلها ويطفي نارها ثم تعود مطرقة
برأسها الى الارض بندم يخالطه اليأس!

مسكينة انت ايتها الانسانية ! انك مخدوعة كما يخدع عشاق
المجد . ان ما يخدعهم وهم باطل . اكليل من الغار يظهر امامهم ويختفي
ستضعه الربة الخادعة على قبورهم لا على رؤوسهم .

اما ما يخدعك انت فأكبر واعظم ولكنه خيال .
اننا جئنا الى هذه الارض اعتباراً ونعيش فيها وسنذهب عنها
كذلك . وحظنا في يد قضاء اعمى ظالم يقسم بيننا الافراح والاتراح
بلا عدل ولا نظام

أيتها الربة الخادعة كم اقبلت على لذة احتاجها . وكم تعلقت
بمخلوق احبه وكم سكنت الى مكان ارتاح اليه فخرمتني لذتي
وابعدت محبوبي واقفرت مسكني وقلت لي اياك واللذة والمحبوب
والراحة لئلا لاتنال الجائزة !

انني لا ازال اسيرك بعد ان كنت تبينت غدرك وخداعك . ان
قوة كامنة فيك وخفية عني تجذبني اليك رغم ارادتي . ترى اتدري
الابرة سر الشمال ؟ ام يدري الفراش معنى اللهب ؟

انني فريسة ظالمين لا يشفقان ولا يرحمان . روح حائر وحب
قاهر الاول لا يقدر له قرار والثاني يجلب العذاب والضجر !

المُسيم الثالث

تعديبي وتعاليلي

رأيت نفسي في الطريق وحيداً بعيداً عن الناس غريب الوجه
فيهم والقلب والجنان . فتأملت قليلاً في حالي واطرقت ثم بكيت .
بكيت طويلاً لاني غريب هنا وغريب هناك . غريب في
وطني وغريب في سائر الاوطان . اشعر بانني في حلم عميق تنبهي
منه كبار الحوادث فلا اوشك ان التفت حولي حتى اعود الى وادي
التيه الذي اهيم واتألم فيه .

ان الآمي كتيار الكهرباء ايجابية وسلبية الآمي الايجابية
هي التي اشرك فيها غيري من البشر الا انها مضاعفة حادة .
مايخدش سواي يجرحني جرحاً مؤلماً ومايجرح غيري يدميني .
مت مراراً وبعثت . نعم مت . انفصلت عن العالم مرة واحدة
وسكنت نفسي واكتفت بذاتها ثم عدت الى الحياة من جديد .
لنفي في كل حين سياحة تطوف فيها بعوالم غريبة وتزور فيها
شقيقاتها ثم تعود . وبعض هذه السياحات قصير وبعضها طويل .

بعضها لا يدوم اكثر من لحظة و بعضها يطول اشهرًا .

وما الموت الا احدى تلك السياحات !

اما آلامي السلبية فهي لي وحدي . وليس لها سبب معروف .
تعذيب مستمر وتعليل طويل . لا تمضي لحظة الا ولي ألم جديد .
أريد شيئاً ولكن لا أدري ما أريد . لقد جئت الى الحياة فوجدت
بها قوماً لا اعرفهم فاتخذت لي ركنًا ولزمت الصمت .

انني اشعر بنقص فيما حولي . وسأبقى مصغياً مشرباً متطلعاً
التماساً لصوت الفته اذني ووجه تعودته عيني ونفس تفتقد لها نفسى
ولكن صوت من ووجه من ونفس من ؟

أيتها الالهة الجميلة القاسية انني التمس صوتك ووجهك ونفسك!
انني اشتيهك كما يشتهي العاشق معشوقته . ان الحب الافلاطوني
لا يكفيني . اريد حب ابيقور . اريد ان اتمتع بك . اريد أن
أعبث بك واقهرك كما عبثت بالالوف وقهرتهم !
أن يبنى وبينك ثاراً قديماً وجهاداً طويلاً !

أمرت واحداً أن يضرب في الارض ويسير في مناكبها فخرج
وطنه وأهله في مقبل عمره وقطع العالم من المشرق الى المغرب ء

وهو يهبط الوديان تارة ويتسلق الجبال اخرى ويعاشر الوحوش
الكاسرة مرة ويعرض نفسه لحيتان البحر مرة ثانية . وكلمة وهن
عزمه او هبطت همته دفعت به بيدك القوية دفعة اخرى فتجدد فيه
ما خلقه الضنى وابلاه الضنك ولا يزال كذلك حتى يلقي حتفه في
اواسط القارة السوداء بين نوع من بني الانسان لا يأنف ان يأكل
الانسان . حينئذ تضحكين ملء فيك وتركين جثته الخامدة . لقد
تم لك ما كنت ترغيبين ولكن ماذا جنى ؟ انك توغزين الى ابناء
جنسه البسطاء فيقيمون له قبراً عالياً وينحتون صورته في قطعة من
المرمر ويضعون فوق رأسه أكاليل الغار لانه كان مكتشفاً !

وهذا الثاني اسكرته بخمرتك التي اذا ذاقها المرء مرة لا يفيق
حياته . وقلده سيفاً واركبته جواداً واشعلت نفسه بنارك المقدسة
واودعت عينيه لمعة وضية . وقلت له اصرخ في الناس يهابوك وممر
الجندي يطيعوك واتبعني افتح لك الارض واقلدك صولجانها واجلسك
على عرشها !

فسار ! ورفع صوته فاصغت اليه الامم وجرى سيفه فوجمت
الجيوش وحمل على الممالك فتمقهقرت امامه الملوك . أشار بيده فسقطت
التيجان من على الرؤوس واتثلت العروش . مخرت جنوده الانهار

وراءه وشق البحر بمهده فجف ماؤه . واعتلى صهوة جبال الالب
وأذاب بانفاسه الحارة جليد روسيا . ووهبوه سيف فردريك الكبير
فقال سيفى أولى وأجدر بى .

نصب اخوته واقاربهم واصدقائه ملوكاً وصير لنفسه في كل
مملكة بلاطاً . مد يده الى الشرق فسجد امامه . بعد ان قهر
الغرب فقبل اقدامه .

وهبته القياصرة كنوزها وخطبت ملكات الارض رضاه وأوشك
أن يقول لمن حوله انا ربكم الاعلى ! ونظر الى وجهك فرأى بسمة فتانة
فسألك فقلت له الى الامام ولو فوق الاجسام .

انك كنت لاتزالين تشجيعينه لانك كنت لاتزالين تشتمينه .
فنظم الحكومات . وسن القوانين . حفر اسمه في لوح الخلود
بجانب اسم صولون وفيثاغور . بعد ان حفره فوق اسماء الاسكندر
وقيصروهنيبال .

ثم ماذا ؟ ثم استغنيت فتخليت عنه فهزمه الاعداء شر هزيمة
وهو يقود خير الجنود . يقولون انه شاخ فتسى فنون الحرب . كلا !
يقولون انه ضعف فضعف ذهنه وكلت ذاكرته . كلا . يقولون
تكاثر الاعداء وثبات جأش ولنجتون وحنق بلوشر . كلا !

السبب سهل ولكنه غير معروف .

انت يا الهتي المعبودة المحبوبة استغنيت فاغضيت . انت ياربة
الحكمة الكبرى ويا حافظة السر الاعظم تخلت فابليت . انت يافاتنة
العطاء ويا خاذلة الأقياء وناصره الضعفاء تحولت فحولت .

كالمشوقة الصبية تنهك عاشقها في شيخ فتناهى عنه لتقرب فتى جديداً
لو كان هذا العاشق متواضعاً اما كنت تحسنين اليه في غضبك
احسانك اليه في رضاك كان لا يريد ان يرغم وليكنه كان قوي القلب
والنفس فرميت به في جزيرة قحلاء في وسط المحيط . وقضيت عليه
ان يقضي ست سنين على الصخر المحاط بالاقيانوس لعله يلين فلم
يزدد الا قوة . فبطشت فقضى !

لقد اخترت رجلاً آخر ولكنه فصيح اللسان قوي الجنان
رحيب الصدر كبير القلب فانتشلته من بين يدي ابيه الوضع
واخترت له ان يحكم امة باسرها !

فتحت له الطريق واضأت سبيله وجعلته بعين واحدة (١) يرى كل
شيء . البسته درعاً من المغنطيس ووضعت في صوته انعاماً لم يعتمد
الناس سماعها واطلقته يخطب فيهم حتى سحرهم فملكوه قلوبهم .
فلما جاء اليوم الذي تعدينه له دفع عن وطنه اعداءه وقال لأُمَّته
الخامدة انهضي فنهضت ثم سيري فسارت .

(١) فقد ايون غمبتا احدي عينيه في صباه .

واراد ان يخطو الى الامام خطوة فقلت له بصوتك القاهر
مكانك • فوق فامطرت عليه المصائب : نصرت عليه اعداءه
واعداك ! خطفت من امامه امه واغضبت معشوقته فهوى كمن
هوى من قبل . وواريت رفاقه لحدا مهجوراً بين وطنيه القديم
والجديد .

اني ارى قسوتك بعيني والمسها ولكنني لا استطيع الابتعاد
عنك • انك تجذيني لاتي اضعف منك • اليس القضاء عبداً من
عبيدك اليس الدهر رمزاً عليك اليست صلواتنا وتهجداتنا وآهاتنا
متوجهة اليك ؟

يا ربة المجد ليس لنا من يدك مفر ولكننا لن نجعل صنعك .
ان علمنا بمسيرنا يعزينا .



التفسير الرابع

مبصر وضرير

كنت في حياتي استنجد بالقوى الخفية واستغيث بالالهة
المستترة ولكنني منذ اليوم استنجد بالقوى الظاهرة واستغيث
بالارباب التي أراها امام عيني . كنت أحسب ان كل عظيم لا تراه
العين البشرية وان عالم الخفاء وحده هو الشامل للعقل العام والنفس
المديرة ولكنني أصبحت اليوم أرى ذلك العقل وتلك النفس فيما
حولي ، فيما يقع عليه نظري ، فيما يسرني وما يحزنني ، فيما تشعر به روحي
وما يلمسه حسي ، في المحيا الجميل ، وفي الوجه المشوه ، في البحيرة العميقة
وفي الجبل الباذخ ، في الزهرة البديعة ، وفي الشجرة الظليلة . اني أرى
العقل العام والنفس المديرة في عقلي ونفسي كما أراها في كل ذرة
من ذرات الوجود .

اذن لا سر هناك ولا ستار . انما هناك مبصر وضرير . اما
الحكمة الكبرى فلم تتغير ولن تتغير وما رآه سقراط وباح به لتلاميذه
واستهان الموت لاجله هو ما أراه الآن امام عيني واكاد امسكه بيدي .
يامعابد مصر الجليلة احتفظي باسرارك المكنونة ويا كهنة لاهاسا

لاتبوحوا بالخفايا المكتومة فلست في حاجة اليها . ان قلبي صار
معبداً ونفسي صارت هيكلًا . وعيني اخترقت حجب الوجود .

نظرت الى طبائع الاشياء فدعنتني الى الامعان والتأمل .
ملأت المطامع نفسي فدعنتني الى العمل . أحبت قومي وارضى فعلمني الحب
الاخلاص . عشقت الرجال والنساء فشقيت في العشق تارة وسعدت
أخرى . أبغضت أعدائي واحتقرت حسادي واضدادي
فامتلاً صدري بالعواطف المتضاربة . تمنيت ونلت بعض الاماني
وخسرت معظمها فعرفت كيف تكون لذة الفوز وكيف تكون
حسرة الفشل . فارقت اعزتي فراقاً أبدياً فبكيتهم وبكيتهم ووقفت
على قبورهم حاسر الرأس خاشعاً وسجدت حيال اجسادهم البالية كما
سجدت في صباي حيال المسجد الحرام . قاسيت مراراً آلام الجوع
والتعب وشعرت تكراراً بوخزات الحاجة وكذلك أحسنت الى
الطبيعة حيناً فلم تحرمني ما كنت اشتهي الا قليلاً . اتخذت من
الناس رفاقاً واخلصت لهم فلم يخلصوا لي . احببتهم وابغضوني كنت
ارجو الخير لهم وهم يحسدونني . رأيت لي في كل مكان عدواً وانا
اريد ان أكون صديقاً للجميع .

كل تلك الحوادث الصغيرة في ذاتها الكبيرة اذا اجتمعت

علمتني معنى الحياة وكشفت لي الستار عن معظم الاسرار . ان ذنوبي
هدبتي وذنوب غيري ارشدتني . تاريخ الامم رسم لي الخطة
الكبرى وتاريخي اضاء لي السبيل . لم اضع الي قهقهة الضاحكين
الا ابتسامة فاترة ولكنني اضفت الي المحيط الفاض بدموع البشر
نهرًا غزيرًا . وكل دموعها عندي قصة . كل دموع من دموعي
ليست الا ذنبًا متبلورًا أو عاطفة سائلة . في ذمة المحيط العظيم
الذي تتدفق فيه هموم الانسانية تلك الدموع الغالية . ان كان هناك
عالم للارواح فذلك المحيط ملحق به لان النفوس لا تطيق الانفصال
عن احزانها . احزان نفسي ثيابها . وهمومها طعامها وشرابها .

سأترك سطرًا لابناء القرون القادمة كما ترك لنا مفكرو العصور
الخالية اسطرًا . أن أبناء كل جيل لا يحبون مفكره ولا يتعظون
بقولهم ولا يريدون سماع صوتهم لانهم منهم ومثلهم ، لان حياتهم
امامهم لانهم يعرفون اشخاصهم . لان بصرهم وقع عليهم والانسان
قليل الثقة في من يعاصره . كما يدني الفتى من القبر يدنيه من المجد
الحقيقي . لان الموت وحده قادر على ان يزيل ما يحيط بنا من التهم
هو ترياق السموم كلها هو مطهر الانسان من عيوب الحياة الفانية .
كان لبعض الناس دين ثم ذهب وكانت لهم عقيدة ولكنها هالت .

فجاءهم دين جديد والبستهم عقيدتهم جديدة حلتها • هذا القول كاف
ولا ازيد • ليسوا يخشون ان يعذبهم رجال الدين لان أقل حسنات
هذا الزمان حرية الاديان . وليسوا يخشون ان ينتعد عنهم الناس
لان معظم الناس جبناء ويخافون من يقول الحق جهاراً . ثم اذا قاطعوهم
فمن هم الناس حتى تحزنهم قطعيتهم . أليسوا تلك الموجودات الضعيفة
التي يشتريها معدن دنى يسمى جهلا منها نفيساً • أليسوا هم آكلوا
لحم بعضهم بعضاً • أليسوا هم الجناة على نفوسهم ثم البارثون من
ذنوبهم الى ارباب لا يعلمونها ولا يشعرون بوجودها . أليسوا هم ذلك
القطيع الابله الذي يأبى ان يسير بلا من يسوقه بعصاه ثم اذا
داهمهم الذئب سلموا اليه حارسهم ليفترسه ، نخب نخب أيتها الانسانية
الآكلة المأكولة ! نخب نخب أيتها الانعام الظالمة المظلومة ! انك
لا تستحقين عناية عقل كبير ولست خليقة باحسان نفس كريمة ،

لماذا طرد فرعون بني اسرائيل من مصر ثم تبعهم بجنوده ؟
لماذا سخر بنو اسرائيل من عيسى ثم صلبوه ؟ لماذا حاربت قریش محمداً
ووصمته بالجنون ورشقه فتيانها بالحجارة ؟ لماذا انتقم نيرون من
اتباع المسيح بتعذيبهم واحراقهم واطعام الوحوش اجسادهم ؟ لماذا
ذبح الكاثوليك اخوانهم المحتجين كما تذبح الشاء ؟ لماذا احرق

كالثقان الاستاذ سرقه وكفرت الكنيسة جاليليه ولماذا أمر احد خلفاء
الاندلس السوقة ان تبصق في وجه ابن رشد وامر سواه باحراق
شعر المعري لماذا وقع جمال الدين اسيراً في الاستانة وبقى فيها حتى
قتلوه؟ لماذا قضى اعداء اميل زولا عليه في بيته وهو في جنب زوجته؟
لان موسى وعيسى ومحمد وبولس ولوثيروس وسيرقيه وجاليليه
وابن رشد والمعري وجمال الدين واميل زولا كلهم فقهوا ما لم يفقه
معاصروهم وفطنوا الى كلمة لم يفتن اليها سواهم وقالوا بما لم يقل به
أحد قبلهم.

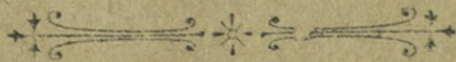
اذن هي غيرة الانسان من الانسان . هذه آثار حسد الجاهل
لمن عرف . حسد الضعيف القوي .

حقد الضرير على المبصر . لا اكثر ولا أقل ! وقدما كان في

الناس الحقد والحسد .

مسكينة أيها الانسانية .

انني الليلة لم اتغن بذكر الهة المجد والكني رثيت بني آدم .



التصبر الخامس

ابن العدل الذي تدعون

هل يأتي يوم نفتح فيه قلبنا ونشكو همومنا لمن نحب؟ ام نزل الى
قبورنا صامتين كاتمين اسرارنا في افئدتنا الحزينة .

هل يأتي يوم ننظر فيه الى الماضي باسمين بسمه ربان السفينة
بعد العاصفة عند اشرافه على ثغرامين يلجأ اليه فيقيه كل خطر .

هل يأتي يوم ننظر فيه الى الماضي السحيق نظرة الاطمئنان
والفوز بعد الصبر المكمل بالظفر .

اجيبي ^{اجيبي} ايتها النفس فقد عودتني الاشراف على المستقبل
واخترق حجب الغيب . اجيبي ايتها النفس ماذا ترين محببنا لنا
في ثنايا الايام وزوايا الزمان .

كم حدثتني بحوادث صادقة وكم نبئتني بما لم يكن لي به من علم .
انى اراك تتردد بين الشك واليقين . اراك تختلج بين
النور والظلام .

سبيلك اليوم غير واضح ودربك وعروا الخطه التي رسمها لك
الدهر غير جلية .

مسكينة انت يا نفسى • لقد امراضك الصبر الطويل واضعفك
التمني والتعليل •

رأيتك قديماً ذات اجنحة من العزم والهمة وبصر نافذ كأنك
استعرتته من نور منيراً وقلب قوي يقودك بجأش ثابت الى اصعب
المعارك وأوعر السبل فكنت تخلقين باجنحتك وحيدة كالنسر
الجليل الى ارقى سموات الفكر البشري وتخرقين ببصرك الحاد
حجب المجهولات والخفايا وتقاومين بقلبك أشد العقبات وتتغلبين
عليها • كنت يا نفس مملوءة بقوة الشباب كنت بين النفوس بكرأ ذات
جمال وعفة •

اما اليوم فقد نالت منك الخبرة مناها ولتقتك الايام درسا مرأ •
فقللت من حدتك والانت من شدتك وعلمتك الوقوف عند حدك •
ولكن ايتها النفس هل لك حد تقفين عنده ؟

هل هناك افق ينتهي لديه بطشك ؟ هل في الكون كله دائرة
لا مجال لك وراءها ؟ كلا ، ايتها النفس ان العقل والحق والعدل
والطبيعة كلها تبيح لك الكل لانك الكل في الكل • انت سيدة
مطلقة ومالكة متصرفة فيما يقع تحت حسك من سماء وارض ونور

وكواكب وبحار وعوالم خفية لا أراها انا وترينها انت بعين ترى كل
شيء ولا يغيب عنها في الوجود ذرة !

يقولون الانسان حقير في جنب الخليفة وانه أقل من ذرة حيال
العوالم الكبرى • كذبوا انهم لا يعلمون • قد يكون الانسان حقيراً
بجسمه ولكن ليس الجسم في نظري شيئاً مذكوراً ولكنه عظيم
بنفسه وهي كل شيء ••

هل لنا غرض عظيم نسعي لندركه • هل للانسانية التي قصت
الوف الالوف من الاجيال في جهاد ضد العناصر الاولى وضد قوى
الطبيعة الظاهرة والكامنة غاية كبرى يسير اليها من يبقي من البشر
ممن لا يهلكون في الطريق ؟

أم نحن مخلوقون عبثاً للتعذيب والفناء ؟

لماذا ترفع الاصوات في كل صباح ومساء بالصلاة ؟

لماذا تشرق الشمس وتغيب ؟

لماذا يسعد قوم ويشقى آخرون ؟

لماذا كونت هذه الارض وملىء سطحها ماء وتحت الماء

نار تتأجج ؟

لماذا يساء الى البعض ويحسن الى الآخرين ؟

لماذا يراد بالبعض شر ويريد الله بالبعض خيرا ؟

لماذا يتحکم الانسان في اخيه الانسان ويساعد الظالم كثيرون
يمنون المظلوم بالهناء والرفاء بعد المات بسنين .

لماذا يذنب البعض فيجني غيرهم ثمار ذنوبهم ويحتملون
ما كان مقسوماً لهم من عقاب وعذاب اليم . اليست هذه قسمة
ضيزى وظلم عظيم ؟

ترى تنسى ذنوب من تريد التكفير عن سيئاتهم ؟

ترى تمحى خطاياهم ويبقى لنا نصيبنا من التعذيب ؟

انهم يقولون في الكون عدل وميزان لا يعتريه اختلال ولا
يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ويرفعون اصواتهم مهلين
كلما انتقم الحكام من مجرم أو كلما وقع ظالم في مخالاب مظلوم .

ولكن مكانكم ايها الناس ! هذا الذي تهلون وتكبرون
لاجله ليس الا من نوادر الحوادث ومستثنيات القواعد . انهم
انتقموا اليوم من مجرم اوقعه سوء حظه في ايديهم . ولكن كم مجرم
يقترف افضع الذنوب فلا يرى او لا تناله يد العقاب .

وان انتقمتم اليوم من ظالم لمظلوم فكم وكم من ظلام فروا ولم
تنلهم يد العدل الذي تدعون . وكم من ظالم يعاصرنا نرى ونسمع
ونلمس فظائعه ولا نستطيع ان نقول له مكانك لانه قادر ان يسحقنا
بقوته

ان امما لا تحصى ولا تعد لاتزال باسرها في اسرها . ان اجيالا
من السنين مرت متواترة متعاقبة على العالم وهو بين من ظلم الظالمين
فأهزقت الدماء وازهقت النفوس وانتهكت الاعراض واهينت
الحقوق . فأين كان العدل الذي تدعون .

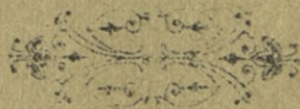
تقولون ان ذنوب القرون الاولى انتقم لها في القرون الوسطى
وذنوب القرون الوسطى انتقم لها في العصر الحاضر . قد يكون هذا
ولكن لقد جاء العدل متأخرا . وماذا يعود على المريض اذا اسعفه
الطبيب بالعلاج وهو دفين ؟

بل ماذا عاد على المسيح من العدل بعد ان صلبوه وماذا استفاد
جاليليه بعد ان قذفوا به من حلق . وميشيل سرقيه بعد ان احرقوه؟
الناس الهوا الاول وعبدوه ومجدوا ذكر الثاني وعظموه واقاموا
لثالث تمثالا نكايه فيمن ظلموه ولكن الم يقل المسيح وهو محتضر

يا الهي لماذا تركتني ؟ ألم يدق عنق جاليليه وهو مكتشف
دورة الارض . ألم يحرق سرفيه حياً وهو أول قائل بدورة الدم
ماذا أفادت الاول عبادة الناس له والثاني تبجيلهم ذكره والثالث
اقامة التماثيل ؟

ان هذه الجرائم تكرر في كل عشية واصيل . وكل جيل حافل
بذكر فضائعه ومظالمه . فلو قلنا ان العدل جاء متأخراً في بعض
الحوادث فلماذا يجيء متأخراً فيما يتلوها . لماذا احترقت جان دارك
ولماذا ذبح دافل ولماذا عذب ايوب ؟

ان الناس ينتقمون من محاكم الارض البطيئة اخطأوا فلينتقموا على
محكمة اخرى فانها أبطأ المحاكم !



الفريد السادس

الحقيقة

ليس في الدنيا صديق !

ليس في الدنيا باسرها صديق واحد يمكنني ان اجلس اليه وافتح
له خزائن قلبي وأمنح فؤادي الحزين امامه الحرية المطلقة ثم ابكي
وابكي وابكي حتى تعود دموعي قطرات من الدم القاني فاسمع منه
كلمات الاسبى والحزن والاشفاق وترفع نفسه النقاب عن الاخلاص لي
فيهدأ بال نفسي الشقية . لم اكن خيراً في هذه الدنيا كما تطلب
منا الاديان والآداب الموضوععة وكما توحى الينا روح الخير التي
ترفرف على العالم بجانب روح الشر القظيمة . ان في عيوباً كثيرة
وفي اخلاقي نقائص ومساويء كغيري من البشر ولكنني واأسفاه
عاجز عن الخلاص منها دفعة واحدة وان قدرت على بعضها فاني
آتي عليه بالصبر والجهاد والثبات وأفرغ جهدي في الخلاص من
البعض الآخر ولكنني واثق من اني لا ازال بعيداً عن أول
مرتبة من مراتب الكمال . على اني مع هذا لم أمسس اخاً لي في
الانسانية بشر وليس في قلبي الحزين مكان للحقد والغیظ وان كان
هذا القلب يعرفهما فهو لا يعرف الا حقداً وغيظاً وهميين لا يسكنانه

الا ليفارقه في لحظة من الزمان وان ملكت الشر لخصم فهيهات ان
انتقم لنفسي منه . ولم ينل عدوا من اعدائي خير الا سرني فلماذا
يا إلهي ان كنت تسمع صوتي لماذا ليس لي في الدنيا صديق ؟

اني اتحاشى الذنوب لا احتفاظا بوداد الناس انما لانني لا اريد
ان اكون مذنباً امام نفسي واذا اقررت ذنباً فليس هذا في
طاقتي منعه ولا بد ان يكون من الذنوب القهرية التي هي أقوى مني
وأشد من طبعتي ثم انني اذا اقررت ذنباً لا ادخر وسعاً في
الاستغفار منه والتوبة عنه والحزن الشديد عليه حتى امحوه بدموع
قلبي . ليس يشغلي ايعرف الناس هذا أم لا يعرفونه فلماذا يا إلهي ليس
لي في الدنيا صديق !

اذا كانت ذنوبي الخبيثة بي هي الوحيدة في صحيفة هذا
الوجود فان استغفاري وندمي وأسفي جديرة بان تمحوها . ولكن
لكل الناس ذنوباً كذنوبي ولكل الوري حتى الحكماء منهم عيوب
وكثيرون لا يكلفون انفسهم مشقة الندم والاستغفار ويستكبرون
ان يخضعوا امام النظام القاهر ويسيرون في طريق العصيان فيها بهم
الناس ويحاربونهم بل تحاييهم الطبيعة نفسها وتمنحهم عطاياها وتخلص
لهم القلوب فهل هذا هو العدل الطبيعي أم هذا خداع تراه العين

البشرية فتظنه حقاً وهو خيال باطل . اذا كان هذا خيالاً باطلاً
والطبيعة والانسانية تحترمان الحب والاخلاص والحق . واذا كان
الله العظيم يعفو ويصفح فلماذا ليس لي في هذه الدنيا صديق ؟
اذا كان العالم قائماً على الخداع والغش والنفاق والاحتيال والقوة
الغشومية ولا يفوز في ميادينه الصعبة ولا يحمل تيجان الفخار فيه
الا الاندال والاشرار الذين يتقنون صناعة الختل والظلم ويبقى
المخلصون مهانين أذلاء معذبين فيه فايقتع الاخيار بأنصبتهم !
ولكنهم يقولون ان الباطل لا يدوم وان الظلم زائل وان الحق هو
السيد السائد في نهاية الامور وأراني رغم ما أراه من حوادث الحياة
المحيطة بي في كل صباح ومساء في الشرق والغرب والشمال
والجنوب ميالاً لهذا الاعتقاد محبا لنصرة العدل والحق فلماذا يا الهي
ليس لي في الدنيا صديق ؟

اليس في هذه الارض انسان مثلي عواطفه كعواطفني وخلاله كخالتي
وضعفه كضعفي ومعتقده كمعتقدي فئاتلف وتتحدا واعزيه ويعزيني
وأعيش على الغذاء الذي تقدمه نفسه لنفسني ويعيش هو أيضاً على
الغذاء الذي تقدمه نفسي لنفسه ؟ اذا كان في العالم هذا المخلوق
فأين هو وكيف ان الطبيعة العظيمة التي تزن الحوادث بمقدار معلوم

وتدبر حركات القضاء والقدر وتدهش العالم بالمخبتات الغريبة
والاتفاقات العجيبة التي يسميها البشر لجهلهم وغباوتهم وعماهم عن
النظام السائد « مصادفات » كيف ان تلك الطبيعة لم تجمعني بعد
بهذا الصديق ؛ وان لم يكن في الارض مثل هذا المخلوق فلماذا
لا توجد به العناية لماذا تركت وحيداً فريداً باكياً منتحباً صارخاً من
اعماق نفسي : ليس لي في الدنيا صديق !

ان البعض يرون في ذلك حكمة اخترعوها وتعليلها ابتدعوه
وهو ان النفوس لا تنضج الا بالآلام والاحزان وان الطبيعة اذا
اختارت بعض النفوس هيأت لها من اسباب الهموم لتنضجها لذا
كان سائر الفلاسفة والانبياء وقادة الامم والشعراء على نصيب وافر
من العذاب الاليم ولذا كانت تلك الآلام دليل السعادة العقلية .
فهل هذا يأتها الطبيعة حق وصدق وهل تلك النار المشتعلة في القلوب
وتلك الآلام التي تلذع كآنياب الافاعي ويشعر بها في الفؤاد كما
يشعر الملسوع بالسموم تسري في بدنه هل تلك الآلام هي نعمة
في شكل نعمة وسعادة في شكل شقاء ؛ هل النفس الحزينة هي من
تلك النفوس التي ارادتها الطبيعة لتسكون شموعاً تضيء للانسانية وتحرق
ذاتها ؛ هل النفس المعذبة شعلة وهاجعة تضيء لتنير للغير ؛ هل هي ضحية من

ضحيا الانسانية التي تقاسي الآلام في الحياة لتمجد وتعبد بعد الموت؟
إذا كان هذا فترض النفوس المعذبة بقسمتها ولتقنع بنصيبها ولا
حاجة لها بعد اليوم الى الشكوى والنجوى ولن تسائل الالهة بعد الساعة
لماذا ليس لنا في الدنيا صديق؟

ولكن واحسرتي واندمي اذا كان هذا الحلم اللذيذ السعيد
وتلك الفكرة التي ينادي بها الناس ليست الا صورة في الخيال
كالصور البديعة التي يُمنى بها الاشقياء في هذه الحياة لتخف عنهم
آلامهم فيموتوا ويذهبوا صابرين كاظمين وحقيقة الامر ان نظام
العالم اختار لهم الشقاء الابدي وليس لهم جزاء لاهنا ولا هناك!

واحسرتي اذا كانت تلك الامنية العذبة هي كحقنة الافيون
تؤخذ لتسكين الآلام المتحركة فاذا سكنت الآلام عادت الينا
الحقيقة سافرة هازئة بأمازينا وخيالاتنا

اذا كانت هي الحقيقة المجردة وقضت علينا العناية التي
تدبر الحياة البشرية والتي لا يعرف كنهها ان نبقى كذلك وان
يتمتع سوانا حالما تقاسي نحن احوال الآلام النفسية والبدنية
فهل لنا من خلاص؟ هل لنا من مبدأ جديد نضع اساسه يهيء
لنا ان نكسر بايدينا الضعيفة تلك القيود التي قيدتنا بها الطبيعة

وان نمحو آثار المظالم التي كتبها علينا اقوياء الارض بلا ذنب ولا جريمة
هل لنا ان نفخ في صور الحزن العام الذي تشترك فيها الانسانية
باسرها؟

ام هذه ايضا هي خرافات نفس معذبة اذا عاد اليها هداها
وملكت رشدها هدا روعها وسكن اضطرابها واستسلمت لحكم
القضاء الظالم وخضعت امام تلك المغارم وحينئذ ينبغي للمعذبين ان
يقيموا على الضيم حاسري الرؤوس خارين الى الازقان متظرين
فراغ الكأس التي قسم لنا ان نجرعها صابرين الى اللحظة
الاخيرة التي نودع فيها هذه الحياة القاسية !

حينئذ ينبغي لنا ان نضع ايدينا وراء ظهورنا ليقيدها القضاء
بقيوده وليسوقنا القدر امامه مطرقين كما كان الرومان يسوقون
اسراهم ويدخلون بهم رومة ظافرين متصرين .

حينئذ ينبغي لنا ان نستسلم لكل شيء ونقر بعجزنا امام من
هو أقوى منا واذا شعرنا بقسوة المنظمات الطبيعية والبشرية وشدتها
فلنهمس في آذان بعضنا باننا مظلومون ولنشهد احجار الارض
وكواكب السماء باننا مظلومون لان اخواننا البشر لا يرحمون ولا
يشفقون واذا اشفقوا ورحموا فليسوا بقادرين ان يخففوا عنا مصائبنا

ودموع الانسانية وآهاتها لاتمحو سطرًا واحدا مما كتب القضاء
على الجبين ؟ ان هذا هو الضعف الميين .

لكنتي لا اتردد في كتابة هذه الشكوى «ورقة اتهام» اتركها من
بعدي ليعلم الناس حقيقة الحال ، ورقة اتهام ادعي بها على قوى
الكون جميعاً انها كلها اشتركت في الجريمة التي قضت على الانسانية
بالآلام الطويلة التي ليس لها آخر الا بالموت الزوأم اذا لم تنفض
عن كاهلها غبار العجز

الموت الزوأم ! نحن الذين نبغض الحياة الدنيا ونحتقرها ونعد
من يحبها جاهلاً نقول أنه موت زوأم نحن الذين لم نذق في حياتنا الا
ساعات معدودة من سعادة موهومة كانت تعادها سنون وشهور
ذقنا فيها صنوف الآلام . نحن نصف الموت بانه زوأم .

ألانه علاج سائر الادواء !

أليس هو النهاية الكبرى لذلك الشقاء فلماذا اذن ندعوه
بالزوأم ؟

أليس امامنا من الاسباب العقلية والنفسية ما يدعونا الى حب
الموت والسعي اليه واستهانة آلامه ان كان فيه آلام ؟ ولكن الغريزة
الحيوانية الدنيئة اراها لاصقة بالحياة اراها تحب العيش مهما كان مرا

وتفضله على الموت مهما كان حلوا . اذن فلنعش ولنسلم ولنذق
صنوف العذاب ولنشرب كأس الألم حتى حثالتها مادامت الطبيعة
القوية جعلتنا نرجف ونرتعش من صورة الموت اذا تخيلناها ! أين
أنتم يا فلاسفة الارض ويا حكماء الحياة أين انتم لتحلوا معي ذلك
الغز الذي لا يحل أين انت ايتها الحقيقة العظيمة المتبرقة ببرقع لم
يجسر ذوو أشد النفوس قوة على رفعه ؟

اين انت ايتها الحقيقة الجليلة لاسرع اليك ولا مزق ذلك
النقاب الكثيف ولا نظر اليك وجهاً لوجه ولا قرأ في جبينك الوضاء
حلا لمعجزة الحياة والوجود ؟

اين انت ايتها الحقيقة المستترة لاصل اليك ولا شكوك آلامي
ومصائبي وآلام اخوتي في الانسانية تشفقي وتمطري من عينك
الخارقين دموعاً تترج بدموعي وتنادي بصوت الام الحنون
« الي ايها الولد التائه الضال الحزين الي لاخفف آلامك ولاسكن
لوعتك » ثم تسفرين عن وجهك فاخر امامك ساجداً صعقا كما خر
موسى من قبل امام وجهك في جبل الطور ؟

الست انت ايتها الحقيقة التي اوشكت ان تشفقي علي يوماً
كنت فيه على رأس الجبل في بقعة سحيقة من الارض وكانت

السماء ممطرة والشمس تعيب وتظهر وانا ابكى من قلبي فخيلى لي اني
اسمع صوتا وارى وجهاً جميلاً فخررت على حجر ومازلت جاثماً حتى
نبهتني قشعريرة شديدة سرت في بدني فاسرعت منحدرًا
وشعرت براحة وسرور؟

الست انت من حاولوا ان يكشفوا سرى في هياكل افريقا
ومعابد آسيانم عادوا خاسئين؟ الست انت ايتها الحقيقة التي
تركت في كل مكان أثراً من آثارك حتى اذا بلغه أحدنا نحن
المساكين أغويته وجذبه اليك ثم اختفيت من امامه
كالسراب الذي يخدع التائهين في الصحراء؟ الى متى أيتها الحقيقة
يبقى الانسان ضالاً تائها؟ والى متى يدوم ذلك السباق الاليم
بين الجهل والعلم بين الباطل والحق بين النور والظلام؟

اغفري لي ايتها الحقيقة يام الامم وياسيدة العوالم وياالهة الالهة
وياامن شيدت لك الهياكل والمعابد واقيمت لتمجيدك الكنائس
والمساجد وحلم بك كل صاحٍ وهاجد اذا تمجمت على مقامك الاسمى
وطلبت منك طلباً مجحفاً . اعذريني ايتها الحقيقة العظيمة اذا تسرب
الشك الى قلبي واسكرني الحزن وتغلبت على الآلام فكفرت يوماً
بنعمتك وقلت ليس في الورى سوى الجهل والظلم والظلام وان

الحقيقة التي ينشدونها عبثاً ليست الا وهماً من الاوهام ،

ان قلبي مملوء بك ونفسي متشعبة بصورتك وفؤادي ووجداني
كلاهما يوقنان بك ولكن الست بشراً ضعيفاً الست من تلك
المخلوقات العاجزة الضئيلة التي تريد كل شيء ولا تنال شيئاً التي
تسمي نفسها بالانسانية . لقد رأيت ادلة كثيرة تثبت وجودك
وعلمت بالخبرة انك هنا وهناك في العلا وعلى الارض عن يميني
وعن شمالي امامي وورائي ولكن لما امسك بعد باهدابك ولم
استطع مع شدة جهادي وثباتي وطول صبري ان المس ذيل
ثيابك . اسمعك تأمريني بالصمت والسكوت اسمعك تقولين
لي بعداً أيها العاجز الجاهل ان الحقيقة لاتمس ولا تنال بالحس
ولكن الست بشراً لا يرى الا ما يقع تحت الحس اذا كان هذا
عبي فهل انا وحدي المذنب ؟

لا اريد ان اعرف كل شيء فليس هذا يهمني وان كان يهمني
فلست قادراً عليه ولكنني اريد ان اعرف شيئاً واحداً : هل قسم
لبعضنا ان يسمعوا العالم اصواتهم وان يخرجوا قواهم الى الارض فيشعر
بها ويراهها كل البشر ام قسم لهم ان تكتم انفسهم قبل ان
يصرخوا صرختهم ؟

ان كانت القسمة الاولى من نصيبهم فجودي ايتها الحقيقة
بالصبر والثبات حتى يقوموا باداء الرسالة التي اردتها لهم جودي عليهم
بالطأ نينة كما تجود المعشوقة الجليلة على العاشق المسكين بكلمة تسكن
نفسه اليها قولي لهم اصبروا واعملوا كما تقول المعشوقة الجليلة للعاشق
المسكين « انت في حل من حبي فحبي » جودي ايتها الحقيقة ولا
تركهم معذنين جودي ايتها الحقيقة بكلمة واحدة وكفاهم الماء
جودي بتلك الكلمة التي تكون غذاء نفوسهم الى الابد ،

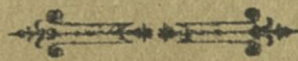
اما اذا كانت القسمة الثانية هي نصيبهم فاعبسي في وجوههم
وادفعي بهم بيدك القوية واتركهم يسقطوا في المهواة السحيقة التي سقط
فيها الالف الالف من قبلهم والتي لا تزال يخرج منها صوت عويلهم
انظقي ايتها الحقيقة بحكمك الاخير!

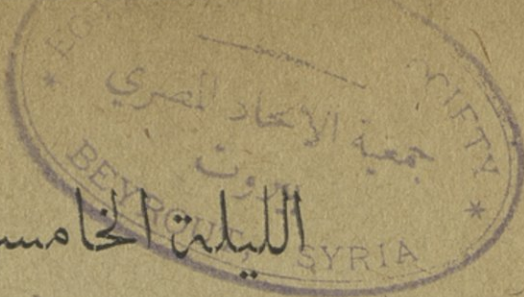
انني ايتها الحقيقة منذ الساعة سأكون كما كنت في الماضي
عبداً مخلصاً لك . سأنسى كل آلامي منتظراً امرك العظيم سأصبر على
همومي واحزاني والقاهما بصدر رحيب سأكتم شكواي وأعلل النفس
بالفرج القريب . اذا رأيت الناس تبغضني واعدائي تغيظني واهل
الظلم يكيدون لي سأعرض عن ظلمهم وغيظهم سأهزأ بمكائدهم
ومفاسدهم سأضحك من خداعهم وشرورهم لانني لأأمل لي الا
فيك وانت أعظم من يؤمل فيه .

لن اشكو بعد اليوم وحدتي لن احزن بعد اليوم اذا
بكيت منفرداً لن اضجر من آلام الفقر والمرض والشقاء بل القاها
جميعها مسروراً مستبشراً .

انني ايتها المحبوبة المتبرقة صابر قانع . اذا التفت حولي فلم أر
احداً يونسني في وحشتي ويساعدني في كربتي ويفرج همي فلن
اسأل بعد اليوم لماذا ليس لي في هذه الدنيا صديق ! فانت على
بعذك صديقتي وانت على تسترك وتقنعك محبوتي التي سأخلص
لها بل انت الهتي ومعبودتي انت ايماني وديني انت قبلي وكعبي
انت حياتي وموتي انت سعادتى وهنأى ايتها الحقيقة انت الكل في
الكل انت الوجود والعدم انت الخالدة منذ القدم .

اسعفيني واسعديني ايتها الحقيقة فاني لا أزال صابراً





الليلة الخامسة عشر

ليلة الوداع

فلما قرأت تلك الاناشيد زادت حيرتي وحزني . وقطعني الروح
 الحائر فهو لا يزورني يخفف بحديثه ما بنفسي فاتخذت من الصبر درعاً
 الى ان ضقت بالحيرة ذرعاً . ثم سمعت الروح يقول لي في نومي اني
 زائر لا آخر مرة ولكن لا تسألني ان ارفع عن بصيرتك نقاب
 الحيرة فلو استطعته لغيري هديت نفسي . ثم وافاني الروح تحت
 جناح الظلام وفي يده المصباح الذي يهدي خطاه في عالم الارواح
 فعلمت لأول وهلة انه لا يزال كما كان حائراً . ولكنني الليلة لمحت
 انتهاك قوته وخفوت صوته .

قلت له : «ماذا أوحى اليك ما كتبت في تلك الاناشيد الستة ؟
 ان بعضها كالريح الصرصر العاتية تغرق سفن الآمال وبعضها
 كاعصار الصحراء تدفن العواطف وبعضها كالسموم تخمد قوي
 النفس وبعضها كريح الشمال تعيد الحياة الى الروح »
 قال : « أوحاها اليّ طمأني الى الوصول الى الغرض الاسمي والمثل
 الأعلى (ايديال) »

قلت : « وماهما ؟ »

قال : « الغرض الاسمى هو بلوغ الانسانية ارقى مراتب
الكمال والمثل الأعلى سلوك الافراد والجماعات سبيل الوصول
الى تلك المرتبة » .

قلت : « وماهي ارقى مراتب الكمال » .

قال : « انها لاتعد وأولها سعادة الانسانية ؟ » .

قلت : « وماذا تقصد بالسعادة ؟ »

قال : « انها درجات وأنواع » .

قلت : « وما أول درجاتها ؟ »

قال : « تقدير الحياة قدرها . والاكتفاء بها دون سواها

مادمنا على الارض » .

قلت : « اذن هذا تعلق بالمادة لا يليق بالارواح » .

قال : « أليست المادة ازلية ؟ انها نصف قوة العناية » .

قلت : « تركتني في حيرة لاتنجلي فقد نعمت على كل شيء
حتى جعلتني مثلك ناقما . وبكيت على كل حي حتى ابكيتني وشقيت

بعقلك وحبك للوقوف على دقائق اسرار الوجود حتى اشقيتني » .

قال : « اني رويت لك احاديث عن الشرق والغرب أمماً

وافراداً وفاتحتك فيما كان يجول بصدري من دواعي الحزن الانساني
ونقلت اليك شعر الارواح وابحت لك اذاعة مادوته وطويته
فاعطيتك صورة من نفسي . ولكن لدى أحاديث لاتنتهي وفي قلبي
عواطف لا افرغ مدى الدهر من وصفها لاني لا استطيع حصرها .
ولكنني اشعر بان دور الخيرة قد انتهى او كاد ينتهي فان التقينا
بعد الليلة كان لي معك حديث آخر لم تسمعه اذن ولم يخطر على
قلب بشر .

قلت : « امنصرف غني ايها الروح العزيز بعد طول الود
اقاطعي بعد تلك الصلاة » .

قال : « صه فلا فائدة في العويل . قد آن لي ان اطوف
عواالم اخرى وانتقل الى دوائر غير التي انا بها » .

قلت : « اي طريق اسلك وعلى اي درب اسير في مهامه
الحياة الارضية » .

قال : « انهض من عثرتك اقاتك الحقيقة ونفض عن نفسك
واعمل في الميدان الذي خلقت للجهد فيه الى ان تفوز او تخذل » .
قلت : « وما هو هذا الميدان ؟ »

قال : « هو ميدان الحياة الانسانية . ان مايعرض لك من
المسائل الارضية لا يحصى ولا يحصر فاصرف قوتك في حلها وافعل

من الخير ما استطعت . والتمس العمل فانه درع تتقي به نصال
الحياة .

قلت : « وما غاية العمل على الارض ؟ الم تقل اننا جئنا اليها
وسنذهب عنها اعتبارا » .

قال : « قد يكون ذلك وليكن المجدوا انفسكم على هذا الكوكب
وان لوجودكم غاية ان لم تقصدها القوى التي اوجدتكم فاخلقوها
بانفسكم الا تذكر كلمة الفيلسوف العتيق الهازيء من الحياة والوجود
التارك في صحيفة الدهر بسمة ازلية ابلغ من كل قول قديم وجديد .

فولتير القائل « اذ لم يكن لكم ارباب فاخلقوها » .

كذلك اذا لم يكن لكم مثل اعلى فاسعوا في ايجاده .

قلت : « واي مثل اعلى بعد ما ذكرت » .

قال : « المثل الاعلى هو البحث عن الحقيقة »

قلت : « وما هي الحقيقة ؟ »

قال : « تسألني عن الحقيقة ما سهل السؤال واصعب الجواب .

وهل لو عرفتها بقيت حائراً . ولو كانت على اطراف الالسنه تنقل من

فم الى فم ما كان للحياة والجهاد والالم معنى فهي اللغز الذي يسعى

الكل في حله فمعظم الناس انصرفوا عن الغرض الاكبر والهمهم

المسألة هي سر الحياة
(.)

اغراض صغرى وقليلون منهم يضربون في مهامه الخيرة .

قلت : « رايتك في بعض اناشيدك تقول رأيت الحقيقة ووقفت على سر الوجود » .

قال الروح « هي امان عذبة كنت امني النفس بها ولا يكون المرء ابعد عن الحقيقة منه يوم يتوهم معرفة كنهها » .

قلت ؟ « سمعتك تقول حينما الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية فماذا عنيت ؟ »

قال : « قصدت بالحقيقة المطلقة تلك التي وصفتها فقل هي الطبيعة

هي العناية هي الوجود هي الروح هي المادة بل قل هي مجموع ما ذكرت وهي

من امر ربي اما الحقيقة النسبية فهي ملجأ فريق من الحكماء اخترعوها

لتسليتهم نفوسهم وتعزيتهم . يقولون الحقيقة لا وجود لها وان وجدت

فلا سبيل للوصول اليها . وحياة الانسان على الارض لاتسع البحث

لبلوغ الغرض الاسمي (ايديال) فكل ما رآه الانسان حقا فهو حق مادامت

فيه راحة لنفسه وهدى لضميره » .

قلت : « واي الحقيقتين تنشد » .

قال : « ليكن غرضك الاسمي (ايديال) الحقيقة المطلقة واقنع

بالحقيقة النسبية مادمت في سبيل الوصول الى الاولى » .

قلت : « وماهي السعادة ؟ » .

قال : « هي ضرب من ضروب المثل الأعلى . هي غاية الافراد والجماعات ومعناها ان يتمتع الفرد او الجماعة بالحياة ولهذا شروط عرف الناس بعضها وغاب عنهم معظمها واؤها ان يكون الفرد او الجماعة بغير قيود وضعها الغير للانتفاع بها وهذا شرط اولي مطلق وكل ما عداه ثانوي نسبي . ومن لا يحوزه ايس في عداد الاحياء ولا ينبغي الاعتماد به . بل ينبغي ان يبذل في سبيل الحصول عليه كل شيء حتى الوجود الذاتي لان الوجود الذاتي لا قدر له ومثل من يعيش بدون هذا الشرط اكتفاء بالحياة المادية كمثل من يفضل الحياة النباتية الدنيا على الحياة الروحانية العليا .

« قلت هذا الشرط الاول عرفته فما هو عماد السعادة » .

قال : « الحب والفضيلة » .

قلت : « سمعتك تقول الحب عبثاً وضرباً من خيال الشعراء

والفضيلة لفظاً موضوعاً » .

قال : « قصدت نوعاً واحداً من الحب وهو حب المرأة ولم

اقصد المثل الاعلى منه » .

اما الفضيلة التي ذممتها فهي المعروفة لعهدكم في الارض وهي صفات توءدي بصاحبها الى القوة والتمتع ولكن الفضيلة التي اريدها

الان انما هي المثل الاعلى من كل شيء وقد يكون اصحابها اخلكم
ذكراً واحطكم قدراً وابعدكم عن الجاه .

قلت : « وما هو المثل الأعلى في الحب ؟ »

قال : « هو الحب المطلق العام الذي لا يدخل في دائرة المادة .

كحب الحق والطبيعة والانسانية والوطن وكلها اغراض سامية تنبعث
منها صنوف الخير » .

قلت : « وما بالك تحقر من شأن الحب المادي بعد ان ذكرت
لي وجوب الاكتفاء بحياة الارض » .

قال : « حاشا ان يكون في القول تناقض انما كل رأي له

مجرى في الفكر . الحب غايته السعادة فلو صدر عنه الشقاء فليس هو
الحب المقصود انما هو ميل مادي يفقد التوازن ويتلف النفس ولكن
الناس فهموا من الاشياء غير المقصود . فهم يطلقون كلمة الحب
« أمور » على عاطفة خادعة . فان شعرت يوماً بتعذيب نفسك في
سبيل حبيك فاعلم انه ليس حبا » .

قلت : كيف ذلك والبذل والالم والتعذيب لا تكون الا في

سبيل الحب الاعلى ألم يأتك حديث القديسين واولياء الله والشهداء
ممن عظم قدرهم بحبهم » .

قال : « اجل . ولكن التعذيب الذي تذكر غير التعذيب

الذي اعني وليس قولي موجهاً لصاحب الذهن الخالي » .

قلت « وما رأيك في العالم . »

قال : « مجموعة أمم ذات ألوان وأطوار شتى . »

قلت : « بم التفاضل بينها ؟ »

قال : « بالأخلاق . »

قلت : « وما هي الأخلاق التي تعني . »

قال : « هي خلاصة حياة الأمة وصورة من روحها . وهي لها

بمثابة سلسلة الظهر للحيوان . وتكون حياة الأمم قوة وضعفاً اعتدالاً

وميلاً عزاً وذلاً سعادة وشقاء كحال خلقها . فما بادت وماذلت أمة

ذات خلق قويم كذلك ما عاشت وما عزت أمة لا أخلاق لها . إن

أكبر الأمم جاهاً وأعظمها صولة لأقوام لها بدون خلق واصغرها من

ذوات الخلق أطولها عمراً وأرفعها مجداً . »

قلت : « وما هي مفصلات الأخلاق . »

قال : « انظر في امتك فإن كانت ضعيفة ذليلة فاحكم بنقص

خلقها وإن كانت قوية عزيزة فهي من ذوات الخلق . »

قلت : « وما رأيك في كبار الرجال ؟ »

قال : « من لا يستفهم نفع الذات ولا يقعد بهم شر يخشونه

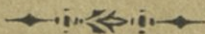
في أنفسهم . »

قلت : « اني سأنشر كل ما حدثتني به على الملأ » .
قال : « اتعلم ما ينالك من وراء ذلك ؟ » .
قلت : « نعم . ان الناس تشكرني اذا نشرت رأياً صائباً
وتعذرني اذا اذعت خطأ » .

قال : « انك ان قلت ما تعتقد عرضت نفسك للوم لانه هيبات
ان تجرد من الناس من يرتضي رأيك اذا لم يكن رأيه . وان من
يقلدون الاغبياء والمتنطعين اكثر منهم غباوة وتنطعاً لان الغبي
والمتنطع له فضيلة واحدة وهي حسن النية . اما اذا قلت مالا تعتقد
بقيت في حرب عوان مع نفسك وأفطع بها من حرب تبدد القوى
وتفتي نشاط النفس على غير جدوى . وان يكون المرء في سلم مع
نفسه لا فضل له من ان يكون في حرب معها وفي سلم مع الناس
اجمعين » . ثم سمعت دويماً وضعف ضوء المصباح . فقلت ايها الروح
العزير . فلم اسمع جواباً .

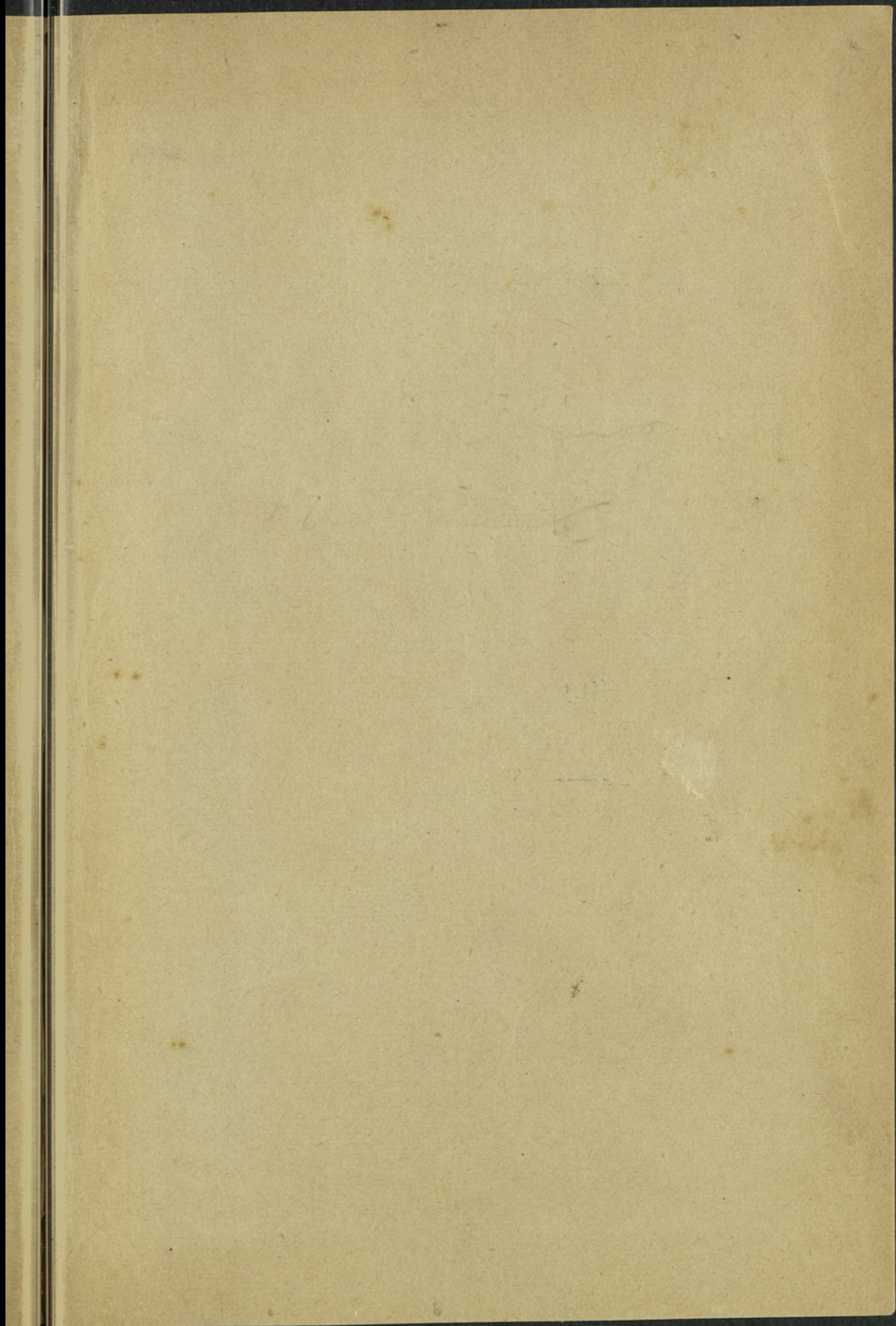
فصرخت من أعماق قلبي ايها الروح الحائر فسمعت صوتاً
قصياً كأنه صوت هاتف يقول :

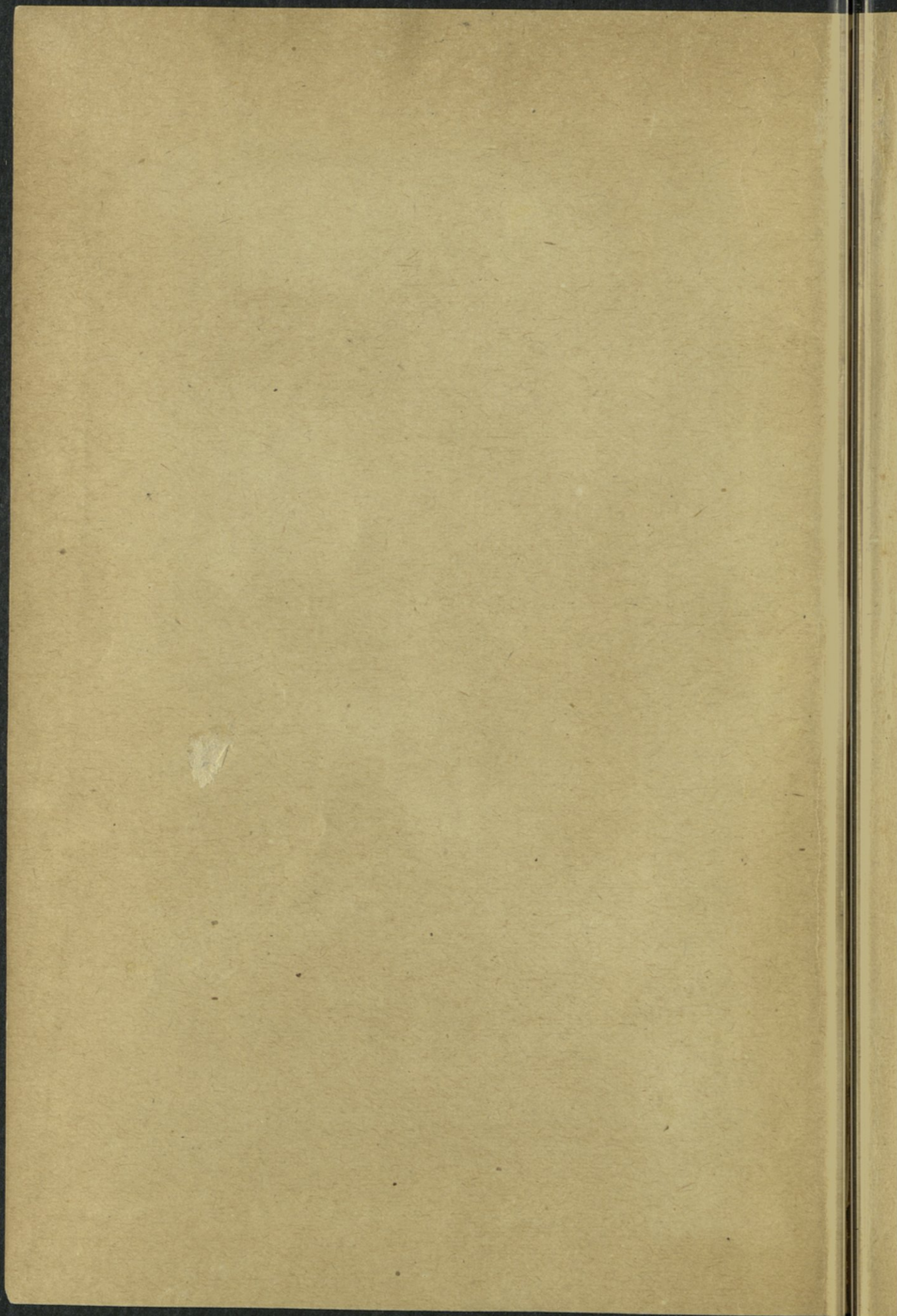
« — قل الروح المهتدي الم تعلم انها ليلة الوداع الاول — ؟ »



تم طبعه في ٢٥ ابريل سنة ١٩١٢

في
البريد
البريد





DATE DUE

JAFET LIB.
* 30 JUN 2004 *
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
* 26 FEB 2009 *
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
* 18 NOV 2014 *
Circulation Dept. 2

جمعة، محمد لطفى
ليالى الروح الحائر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01037981

American University of Beirut



General Library

